بسم الله الرّحمن الرّحيم

التفسير التربوي لجزء الثلاثين من القرآن الكريم

د/ سيد نوح - رحمه الله تعالى-

مقدّمة:

الحمد لله رب العالمين, وأشهد أن لا إله إلا الله ولي الصالحين, وأشهد أن محمدًا سيد الأنبياء وإمام المتقين, اللهم صل وسلم وبارك على محمد النبي الأمي وعلى آله وأصحابه والسالكين سبيله والداعين بدعوته إلى يوم الدين.

{رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ} {رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ} {رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا} {رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ}. اللهم آمين.

أما بعد:

فقد حفظنا من آبائنا وأمهاتنا ومشايخنا أنّ شهر رمضان المبارك هو شهر القرآن, ولم نكن نعرف لماذا يقال: رمضان شهر القرآن؟ حتى وعينا الحقائق التالية وهي:

أولًا: أنّ القرآن الكريم نزل جملة واحدة من أم الكتاب إلى اللوح المحفوظ في بيت العزة في السماء الدنيا في شهر رمضان, قال الله تعالى: {شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ القرآن هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} (البقرة: 185). وقال تعالى: {إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ * فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ * أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ * رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} (الدخان: 1-6). وقال تعالى: {إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ * لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ * تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ * سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ} (القدر: 1-5). وهذا هو الدليل الأول على أنّ رمضان هو شهر القرآن.

ثانيًا: أنّ النبي صلى الله عليه وسلم كان يتحنّث (يتعبد) في غار حراء, وقد كان عليه الصلاة والسلام يرى حال الناس ووضعهم في الجاهلية فكانوا في وضع لا يحسدون عليه, لقد وجد النبي الكريم صلى الله عليه وسلم أنّ الإنسان في الجاهلية مهدرًا في دينه وفي دمه وفي عقله وفي عرضه وفي نسله وفي ماله, وهذا الوضع كان يسبب للنبي صلى الله عليه وسلم حزنًا كبيرًا؛ ولهذا كان يعطف على الناس ويرق لحالهم, وكان يقول: "لا مخرج من هذا الأمر إلاّ بإذن الله سبحانه وتعالى, وإني أرجو أن يكون هذا الخلاص على يدي".

إنّ المسلمين عندما يقعون في معضلةٍ كبيرة, نسمع كثيرًا منهم يقول: يا ربّ أليس عندنا مثل صلاح الدين؟ وأقول هل الأفضل أن نطرح هذا السؤال ونبحث عن صلاح الدين أم يسعى كلّ إنسان منا ليكون صلاح الدين؟ هل يأتي صلاح الدين هكذا بمحضٍ من الصدفة؟

وإنّ الإجابة المثلى هي أن يسعى الإنسان ليكون صلاح الدين، وإنّ صلاح الدين لا يأتي إلا بقصدٍ وجهدٍ وكدٍّ وعرَقٍ وعلوّ همةٍ واندفاع.

ما الذي صنعه النبي صلى الله عليه وسلم حينما أراد أن يكون خلاص العالَم على يديه؟

لقد كان صلى الله عليه وسلم يتفكر في خلق الله تعالى، ويدعوه في أماكن بعيدة عن أنظار الناس, حيث كان يمشي إلى غار حراء ويمكث فيه أياما عديدة ثم يعود، وهكذا يفعل ذلك مرارًا، وكان مشركو قريش وغيرهم يرون خروجه ومجيئه, حتى قال بعضهم: إن محمدًا -صلى الله عليه وسلم- قد عشق ربه, حيث أصيب بحالٍ من العشق وبحالٍ من الحب والوله.

وبينما كان صلى الله عليه وسلم على تلك الحال التي هو فيها من الاعتكاف والدعاء لله تعالى، فوجئ بنزول جبريل عليه السلام في شهر رمضان المبارك يقول له: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ} (العلق: 1-5). ومنذ ذلك التاريخ فقد تتابع الوحي على مدى ثلاثة وعشرين عامًا حتى اكتمل الدين, وتنزل قول الله تعالى: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا} (المائدة: 3).

ثالثًا: من الأدلّة أيضًا على أنّ رمضان هو شهر القرآن: أنّ النبي صلى الله عليه وسلم أخبرنا أن جبريل عليه السلام كان يأتيه على وجه الخصوص في رمضان, ويظل يدارسه ما نزل من القرآن, فكل ما نزل من القرآن تتم مراجعته في رمضان، حيث كان يستمع جبريل عليه السلام للنبي صلى الله عليه وسلم, ويذكره بأشياء غابت, ويشرح له أشياء غامضة, لقد كان جبريل عليه السلام يقوم بمراجعة القرآن مع الرسول صلى الله عليه وسلم كل عام مرة واحدة, وفي السنة الأخيرة من حياته صلى الله عليه وسلم دارسه جبريل عليه السلام القرآن مرتين, فعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أجود الناس، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل، وكان يلقاه في كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن، فلَرسول الله صلى الله عليه وسلم أجود بالخير من الريح المرسلة"[1].

إنّ المعلم الحقيقي لرسول الله صلى الله عليه وسلم هو جبريل عليه السلام, والدليل على ذلك قول الله تعالى: {عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى} (النجم: 5).

رابعًا: إخبار النبي صلى الله عليه وسلم عن فضل قيام شهر رمضان، ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم: "من قام رمضان إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه"[2]. وقوله أيضًا: "من قام ليلة القدر إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه"[3].

لقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم يقوم في رمضان ويُسمِع أصحابه ما نزل عليه من القرآن، كما نلاحظ اليوم أنّ الكثير من المشايخ والأئمة يحرصون على ختم القرآن عدة مرات في رمضان، ويحضون غيرهم على ختم القرآن, فمنهم من يختم القرآن مرة, ومنهم من يختمه مرتين, ومنهم من يختمه ثلاثًا, لأنه في المرة الأولى قد يكون شارد الذهن , فتأتي المرة الثانية فيستوعب ما غفل عنه في المرة الأولى, وأما في الثالثة فيستوعب ما غفل عنه في المرتين الأولى والثانية. فهذا الكتاب الكريم كلّما تكررت قراءته كان في ذلك الفقه والحكمة, وظهور الحقائق والمعاني الجديدة؛ وقد قال أحمد شوقي في أبياته المشهورة:

(1) البخاري برقم(6).
(2) البخاري برقم(37)، مسلم (759).
(3) البخاري برقم(35)، مسلم (760).

جاء النبيّون بالآيات فانصرمت وجئتنا بحكيمٍ غير منصرم
آياته كلّما طال المدى جددٌ يزينهنّ جلال العتق والقدم

إنّ خلاصة الأدلّة الأربعة السالفة الذكر - على أنّ رمضان شهر القرآن- هي:
1. أن القرآن نزل من أم الكتاب إلى اللوح المحفوظ في رمضان.
2. أنّ بدء نزول القرآن كان في رمضان في ليلة القدر.
3. مدارسة جبريل عليه السلام القرآن للنبي صلى الله عليه وسلم.
4. قيامنا شهر رمضان بالقرآن الكريم.

فهذه الأدلة تجلّي أن رمضان هو شهر القرآن، وتثبت صدق قول علمائنا وآبائنا وأمهاتنا بخصوص هذا الشهر الفضيل؛ ومن أجل ذلك فإنّ أهمَّ أمرٍ يكون رمضان هو أن نعيش مع كتاب الله تعالى, مع العلم أنّ الحرف بحسنة، والحسنة بعشر أمثالها, وفي رواية :أنّ الحرف بحسنة والحسنة بعشرين, وفي رواية ثالثة: الحرف بحسنة والحسنة بثلاثين, وكلّها صحيحة ولا تعارض بينها, وفي تفصيل ذلك نقول: الحرف بحسنة والحسنة بعشر لمن قرأه ولم يفقه منه شيئًا وإنما مجرّد تلاوة فقط, والحرف بحسنة والحسنة بعشرين لمن قرأه وفقه بعضه والبعض الآخر لم يفقهه, أما الحرف بحسنة والحسنة بثلاثين لمن قرأه ووعاه كلّه، والله أعلم.

وبمعنى آخر: هب أنني قمت بفتح الخزانة, ووضعت فيها رصيدًا من الحسنات, كلّ حرف بثلاثين حسنة. فإذا قيل لي: إنّ في كل دقيقة سوف يتم وضع ثلاثين دينارًا في حسابك بشرط أن تقف على رجليك ولا تجلس.

في هذه الحالة سيحاول الشخص أن يقف على رجليه ليلًا ونهارًا من أجل الأموال, والله تعالى يقول:{وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ} (العاديات: 8). ويقول سبحانه: {وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا} (الفجر20).

إنّ الإنسان يحب المال ولو كان على فراش الموت, فلو قيل له: إنّ لك شيكًا بمبلغ مائة دينار في الوزارة ويحتاج للتوقيع, فإنه سيبادر بالذهاب لاستلام ذلك الشيك, حتى ولو كان سيموت خلال ساعة واحدة, ذلك لأنّ قضية الأموال قضية خطيرة, وقد قيل: أذلّ الحرص أعناق الرجال.

وعلى سبيل المثال: فقد كان أحد الشيوخ يقوم بالتدريس في المدينة المنورة وقد بلغ من العمر تسعين عامًا, وكان لا يستطيع الجلوس أو القيام إلا بمساعدة الآخرين له, فأشفق عليه بعض تلاميذه, وقال له أحدهم: كفاك ما جمعت من أموال وعليك الرحيل لتعيش ما بقي لك من عمرٍ مع أولادك وتموت بينهم, فقال الشيخ: يا بني والله لولا الحبيب لغادرت الآن, فلما سمع التلاميذ لفظ الحبيب وهم في المدينة المنورة ذهب ظنهم أنّ المقصود هو الرسول صلى الله عليه وسلم؛ لذا قالوا: اللهم صل وسلم عليه, فقال الشيخ: على من تصلّون؟ أنا أقصد بالحبيب: الريال.

لقد أصبح الحبيب في عرف هذا الشيخ الهرم هو الريال وليس رسول صلى الله عليه وسلم, وللأسف صارت هذه هي طبائع الكثير من بني الإنسان.

ولذلك عندما يقول لنا الرسول صلى الله عليه وسلم: "الحرف بحسنة والحسنة بثلاثين", فكيف يضيع من المسلم هذا الخير الوفير!.

إنّ رمضان هو شهر القرآن, وهذا يعني تلاوته والتفقه فيه وحفظه - ما استطعنا لذلك سبيلًا-والعمل به ودعوة الناس إليه, خصوصًا من أغرّتهم الدنيا ببريقها وزخرفها وزينتها، وأن نحتسب الوقت - الذي ندعوا فيه الناس- عند الله تعالى، حتى ننال الحياة الطيبة والجزاء الحسن. قال تعالى: {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} (النحل: 97) .

إن مما يجب علينا هو أن ندافع عن كتاب الله تعالى، لاسيما إن رأينا من يهاجم القرآن وينال من رسولنا صلى الله عليه وسلم, وإنّ من أنواع الدفاع عن هذا الكتاب الكريم أن ننتهز هذا الشهر الفضيل قراءة وحفظًا وتفقها وعملًا.

تتلخص محاور هذه الدراسة في المحاور التالية:

المحور الأول: أهمية العقيدة في حياتنا, والجزء الثلاثون مبني عليها.

المحور الثاني: لا بد من العمل حتى تكون النجاة.

المحور الثالث: العقبات التي تحول بيننا وبين العمل الصالح, وكيف نتغلب عليها؟.

المحور الرابع: تلازم قراءة القرآن مع العمل به والمتابعة بالتفسير والمدارسة.فالقرآن لا يحتاج إلى وقوف طويل ,فالصحابة الكرام كانوا يفقهون القرآن بسليقتهم, ولو عدنا إلى سلامة ونقاء اللسان العربي لفقهنا القرآن دون تعب أو جهد أو مشقة.

سبب اختيار جزء الثلاثين من القرآن:

إنّ السؤال الذي يتبادر إلى الأذهان لماذا وقع الاختيار على الجزء الثلاثين؟

والجواب: لأنه جزءُ العقيدة التي تعتبر الجزء الأساس الذي يقام عليه البناء, ولذلك إذا بَنيت بناءً بدون أساس متين فسيكون عرضة للهدم والسقوط إذا تعرضت البلاد لزلزال بسيط, ولو نصبت خيمة بدون تأسيس جيد فستكون عرضة للسقوط إذا هبت عليها الرياح؛ لذا فقوة البناء من قوة أساسه وضعفه من ضعف أساسه.

إنّ الأساس هو الأصل الذي يبنى عليه البناء، وإنّ بناء الإسلام يقوم على الإيمان بالله وملائكتة وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره, وهذا الأصل لا مفاصلة فيه أبدا؛ لذا لابد أن نبدأ البداية الصحيحة, فكان اختيار هذا الجزء المتضمن لأصول العقيدة الستة.

لقد بدأنا بهذا الجزء؛ لأنّ الوحي بدأ به مع أنه آخر أجزاء القرآن, كأنه يقول لنا: إن أول ما ينبغي أن تتعلموه وتعلموه لغيركم هو العقيدة, وعندما يكون المسلم لا أساس له في العقيدة، فمن السهل أن يترك دينه مقابل مبلغٍ من المال ويلهث خلفه, كأن تعطيه إحدى المنظمات التبشيرية مبلغ ألف دينار مقابل تَرك دينه, زاعمة أنّ الدين الذي يعتقده لا يستطيع منحه هذا المبلغ، وإذا فشلت تلك المنظمة التبشيرية بالإغراء المادي فستقوم بالتهديد والوعيد بتعليقه وسلخه وتقطيعه ما لم يترك هذا الدين, فإن كان بناءُ ذلك الشخص ضعيفًا فسينصاع لهم خوفًا على حياته, أما إن كان الأساس قويا فإنه سيقول: والله لو وزنت لي الدنيا وأضعافها على أن أترك دين الله ما تركته, ولو قطعت إربًا إربًا فلن أترك دين الإسلام؛ لأن ترك الإسلام فيه خسارة الدنيا والآخرة.

أبرز القضايا التي يناقشها جزء الثلاثين من القرآن:

إنّ أبرز ما يميز هذا الجزء من القرآن قضيتان أساسيتان:

القضية الأولى: قضية التوحيد: التوحيد قضية أساسية وهي موجودة في الجزء كله، وقد تجلّت في سورة الإخلاص، قال تعالى: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (1) اللَّهُ الصَّمَدُ (2) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (3) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ} (الإخلاص: 1-4).

وهذه السورة تسمى سورة الإخلاص الكبرى, وفي مقابلها سورة المفاصلة - وتسمى بسورة الإخلاص الصغرى- :{قُلْ يَأَيُّهَا الْكَافِرُونَ (1) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (2) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (3) وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ (4) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (5) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ} (الكافرون: 1-6).

القضية الثانية: إلى أين نحن سائرون؟

لا ريب أننا سائرون إلى لقاء الله عز وجل, وإنّ من أبرز السور التي تحدثت عن لقاء الله تعالى وما يكون في اليوم الآخر من جزء الثلاثين هي: سورة النبأ, والنازعات, وعبس, والتكوير, والانفطار، والمطففين والانشقاق، والبروج, والطارق، والأعلى، والغاشية, والفجر، والبلد، والشمس, والليل, والضحى, والشرح, والتين, والعلق, والقدر, والبينة, والزلزلة, والعاديات, والقارعة, والتكاثر".

لذلك فالجزء الثلاثون من بدايته إلى نهايته يدور حول أركان العقيدة وخصوصا العقيدتين الأساسيتين: البداية والنهاية.

فالبداية من صاحبها؟

الجواب: الله سبحانه وتعالى.

والنهاية إلى أين؟

والجواب: إلى لقاء الله سبحانه وتعالى.

فما دمت تعلم أنك سوف ترجع إلى الله تعالى وأنك مسئولٌ عن عملك ومجزيٌ عليه ففي هذه الحالة فلا بدّ من العمل لهذا اللقاء. فحين يحدثنا المولى سبحانه وتعالى عن العقيدة, يقول لنا: خذوا حذركم فأنتم راجعون إلى الله وسوف تلقونه؛لذا فاعملوا بما يُريده واتركوا ما يُغضبه.

هل يرضيك أيها المسلم أن تلقى الله تعالى وأنت تبكي دمًا على ماضيك وتقصيرك؟

إنّ الفرصة أمامك فانتهزها, وباب التوبة مفتوح أمامك فبادر بالدخول فيه, حتى ينطبق عليك قول الله تعالى: {يَأَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (27) ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً (28) فَادْخُلِي فِي عِبَادِي (29) وَادْخُلِي جَنَّتِي} (الفجر: 27-30).

والطريق إلى رضا الله تعالى محفوف بالعقبات, كنفسك الأمارة بالسوء, والشياطين الإنسية والجنية. قال تعالى: {وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّيَ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ} (يوسف: 53). وقال تعالى: {قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (1) مَلِكِ النَّاسِ (2) إِلَهِ النَّاسِ (3)مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ(4) الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ(5) مِنَ الْجِنَّةِ وَ النَّاسِ}. وقال تعالى:{وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ (4) وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ} (الفلق: 1-5).

والنفس مفطورة على الخير ومفطورة على الشر, قال تعالى: {وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (7) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (8) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (9) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا} (الشمس: 7-10) . وإن على المرء أن يقوم بإصلاح نفسه، قال تعالى: {قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (9) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا} (الشمس: 9-10). ويقول سبحانه وتعالى أيضًا: {قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى (14) وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى} (الأعلى: 14-15) .

فأنت أيها الإنسان صاحب القرار, فإما أن تكون سعيدًا وإما أن تكون شقيًا.

فلا تقل إنّ الله قد كتب عليّ الشقاء, وإنما عليك أن تعمل الصالحات كي تُيسر لليسرى وتكون من أصحاب السعادة، قال تعالى: {إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى (4) فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى (5) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى (6) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى (7) وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى (8) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى

(9) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى} (الليل: 1-10) . فكأن الله تعالى قد لخص لنا الجزء كاملا في هذه السورة، حيث يقول: آمن بالله, وآمن باليوم الآخر, وصدّق بالنبي صلى الله عليه وسلم, والقرآن الذي نزل عليه، وبالملائكة وباليوم الآخر.

ومن العقبات التي تحول في طريقك لرضا الله تعالى عقبة الدنيا, يقول تعالى: "{أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ (1) حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ (2) كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (3) ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (4) كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ (5) لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ (6) ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ (7) ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ} (التكاثر: 1-8).

إن علاج العقبات التي تحاول إعاقة الإنسان عن عمل الصالحات, مثل النفس الأمارة بالسوء, وعلاجها هو مجاهدة هذه النفس الأمارة وإرغامها على عمل الصالحات,كذلك من المعوقات شياطين الإنس والجن, وهذان لا قيمة لهما ولا تأثير لهما يذكر عندما يكون الإنسان ذا همة عظيمة ويتلو آيات الله عز وجل, لكي يعرف أساليبهم ومكرهم ودهاءهم ,وبالتالي يستطيع الرد عليهم, كذلك من المعوقات لعمل الصالحات الدنيا وزخارفها, ونحن لا ندعو إلى رفض الدنيا جملة,ومن المهم لنا جدا أخذها, ولكن يجب أن نأخذها بالضوابط الشرعية ولا يتسنى لنا ذلك حتى نتبع ضوابط خمسة هي:

1- أن تكون من حلال.
2- أن نؤدي حق الله عز وجل فيها.
3- أن ننفقها إنفاقا وسطا.
4- أن نأخذها بعزة نفس.
5- أن تكون في أيدينا لا في قلوبنا.

فمحور الجزء الثلاثون يدور حول العقيدة, وأننا راجعون إلى الله سبحانه وتعالى, وحتى ننجو في ذلك اليوم العظيم لا بد أن نعمل الصالحات التي ترضي ربنا, ونترك الطالحات التي تغضب ربنا سبحانه وتعالى,قال تعالى: "وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ" (العصر: 1-3) .

قصتان على قوة العقيدة:

هنالك قصتان على قوة العقيدة ورسوخها وثبات أصحابها سوف أسردهما لكم, إحداهما في الشدة, والأخرى في الرخاء.

القصة الأولى:

في آخر عهد النبي صلى الله عليه وسلم جاء وفد بنو حنيفة من اليمن, ومعهم رجل يُدعى مسيلمة, وكان مسيلمة هو راعي القوم, بمعنى أنهم جاؤوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم وتركوا مسيلمة في رحالهم عند الدواب, وهذا يثبت أن وزنه بحسابات أهل الأرض ليس كبيرًا, وعندما نتحدث عن كونه راعيا نحن لا نحتقر أحدًا.

ومن المعروف أنّ النبي صلى الله عليه وسلم كان عندما تأتيه الوفود يهش لها ويبش ويستقبلهم أحسن استقبال, وعندما يهمون بالانصراف يعطيهم الجوائز, ومن عادة الإنسان أنه يحب الأعطيات والجوائز مهما كان حجمها, ويتساوى في ذلك الغني والفقير, فالإنسان بطبعه لا يشبع "ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب"

ولما همّ القوم بالانصراف وأخذ كل منهم جائزته, سأل النبي صلى الله عليه وسلم القوم: هل منكم أحد لم يأخذ جائزته؟

قال القوم: الراعي مسيلمة الذي تركناه في رحالنا يحرس دوابنا لم يأخذ جائزته.

فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: أنا سأذهب بنفسي لكي أعطيه جائزته, وبالفعل ذهب إليه الرسول صلى الله عليه وسلم حاملا له جائزة ,وصافحه وأعطاه جائزة أكبر من جوائز القوم لأنه الذي يحرس دواب القوم ورحالهم.

فقال الخسيس مسيلمة: أنا لا أقبل مكافأتك ولا هديتك, إلا إذا جعلت الأمر لي من بعدك.

وكانت مع النبي صلى الله عليه وسلم جريدة فقال: "والله لو سألتني هذه القطعة ما أعطيتكها, فكيف أعطيك النبوة"[1].

وقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم: "رأيت كأني ألبس سوارين فنفختهما فطارا"[2], فرسول صلى الله عليه وسلم رآه في النوم, ومسيلمة فتنة من الفتن, ثم قال صلى الله عليه وسلم: هذا ثابت بن قيس خطيبي هو الذي سوف يجيبك, لأنّ وقت الرسول الكريم لا يضيعه مع مثل هذا الإنسان الحقير, لذا ترك الرسول صلى الله عليه وسلم المكان, وأبقى قيس بن ثابت متحدثًا باسمه مع وفد بني حنيفة.

فلما رجع مسيلمة إلى اليمن, أعلن نفسه أنه هو النبي الجديد,ثم كتب رسالة وأرسلها للنبي صلى الله عليه وسلم, قال فيها: (من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله أما بعد: فقد أشركت في الأمر معك أو من بعدك, ولكن قريشا قوما يظلمون) .

فكتب إليه الرسول صلى الله عليه وسلم رسالة قال فيها: "بسم الله الرحمن الرحيم, من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب أما بعد: فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين,فالأرض ليست لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولا لغيره من البشر, ولكنها لله سبحانه وتعالى يهبها لمن يشاء, فنحن أجراء عند الله تعالى.

والسؤال هنا: من ذلك الشجاع الذي سيوصل هذه الرسالة إلى مسيلمة الكذاب؟ لما فيها من مخاطرة ومجازفة.

الإجابة: لا بد في من يحمل هذه الرسالة أن تتوافر فيه صفات الإيمان الراسخ كالجبال, لقد بحث رسول صلى الله عليه وسلم في أصحابه من يحمل تلك الرسالة, فعثر على شاب قد بايعه وهو يبلغ من العمر ثلاث عشرة سنة, وترعرع وتربى في كنف النبوة طوال تلك السنوات, وأمه هي نسيبة بنت كعب رضي الله عنها التي كانت تدافع عن الرسول صلى الله عليه وسلم في يوم أحد, والتي قال في حقها الرسول صلى الله عليه وسلم: "ما التفت يمينا وشمالا إلا وجدتها بين يدي وفي يدها خنجر,فسألها الرسول صلى

(1) البخاري برقم(3620) ومسلم برقم(2273)
(2) البخاري برقم(4373) ومسلم برقم(2274).

الله عليه وسلم: ما هذا يا أم عمارة؟ قالت: إذا واحد من المشركين اقترب منك بقرت بطنه بهذا الخنجر, ثم سألها عن الخرق التي عليها؟ فقالت: إذا جرح أحد من المسلمين تكون له ضمادة, فهي مقاتلة وطبيبة في آنٍ واحد.

فتلك المرأة وزوجها وابناهما ممن بايعوا يوم العقبة, أي منذ عشر سنوات, أي أن ابنها الآن في ريعان شبابه, وصار في عمر ثلاثة وعشرين عاما.

هذا الشاب هو حبيب بن عاصم بن ثابت الذي اختاره الرسول صلى الله عليه وسلم لكي يحمل الرسالة إلى مسيلمة الكذاب, فاستدعاه الرسول صلى الله عليه وسلم,وقال له: هل تقوم بتبليغ مسيلمة الكذاب هذه الرسالة, وتكون معي في الجنة؟ (وكلمة تكون معي في الجنة في هذا المقام معناها أنه سيكون شهيدا) .

فما كان من ذلك الصحابي الجليل إلا أن قال: سمعا وطاعة يا نبي الله,وكأنما حاله يقول: أنا أعمل لذلك اليوم الذي أكون فيه معك في الجنة منذ فترة طويلة'وأنا في شوق لذلك اليوم, وكأنما الرسول صلى الله عليه وسلم قد وضعه في الطريق التي يتمناها ويريدها.

ثم حمل رسالته, وركب ناقته, وتوجه بها إلى بني حنيفة,وأخذ يحث الناقة على الإسراع,فلما وصل إلى ديار بني حنيفة, ربط ناقته وتوجه من فوره برسالة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى مسيلمة الكذاب ,فلما قرأ مسيلمة الكذاب الرسالة اسود وجهه فوق ما فيه من سواد الكفر والكذب والبهتان الذي يفتريه على الله سبحانه وتعالى.

ونحن لا نذم أحدًا ولا نعيب على خلق الله, وسواد الوجه ليس عيبًا ولا سبة, فبلال الحبشي رضي الله عنه قال عنه النبي صلى الله عليه وسلم: "ما دخلت الجنة قط إلا سمعت خشخشتك أمامي، دخلت البارحة الجنة فسمعت خشخشتك أمامي، فقال بلال: يا رسول الله ما أذّنت قط إلا صليت ركعتين وما أصابني حدثٌ قط إلا توضّأت ورأيت أنّ لله علي ركعتين عندها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بهما"

فبلال مع سواد وجه إلا أن فيه نور الإيمان, أما مسيلمة مع سواده ففيه سواد المعصية, فوجهه أغبر عليه غضب الله,ولما أخذ كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ازداد غبرة على غبرته.

ثم أمر مسيلمة بشنّ حرب نفسية على حبيب بن عاصم بن ثابت,كنوع من الرعب والهزيمة النفسية قبل بداية التحقيق معه ومحاولة إغوائه, فألقوه في السجن, وهو مكبل بالسلاسل في يديه ورجليه ووسطه إلى الصباح, فظل حبيب طوال الليل يقرأ القرآن ويقيم الليل, ويبكي شوقا للجنان وأزواجه من الحور العين, فلما طلع النهار وفي وقت الضحى أمر مسيلمة بإحضار حبيب بن ثابت للتحقيق معه, وجهز لذلك النطع (وهو الجلد الذي يذبحون عليه الذبائح), وأمام النطع سياف هو ما يطلق علي عشماوي في العصر الحديث.

ثم جاؤوا بحبيب وهو مكبل بالحديد وأوقفوه أمام مسيلمة الكذاب, فقال له مسيلمة الكذاب: ياحبيب: أتشهد أن محمدا رسول الله؟ قال حبيب: نعم أشهد أن محمدًا رسول الله, ثم قال مسيلمة الكذاب: وهل تشهد أني رسول الله؟ قال حبيب: إن في أذني صمم فلا أسمع.

فأشار مسيلمة الكذاب إلى السياف,فضربه بالسيف, فقطع قطعة من لحمه,ثم أعاد مسيلمة الكذاب الكرة مرة أخرى, وقال له:[10]يا حبيب أتشهد أن محمدا رسول الله؟ قال حبيب: نعم أشهد أن محمدا رسول الله, قال مسيلمة الكذاب: وتشهد أني رسول الله؟ قال

حبيب: قلت لك: إن في أذني صمم فلا أسمع, فأومأ للسياف فضربه بالسيف فقطع جزءا من لحمه, وظل الأمر هكذا حتى قطعوا نصفه,ولقي ربه فلم يغير ولم يبدل,قال تعالى: {مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا} (الأحزاب: 23) . لذا نريد من أصحاب العقائد أن تكون عقيدتهم راسخة في قلوبهم رسوخ الجبال,مهما كان الترغيب والترهيب, حتى ولو تم تقطيعهم إربا إربا لا يتزحزحون عن هذا الدين حتى يلقوا الله سبحانه وتعالى, في جنان الخلد والنعيم.قال تعالى{يَأَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ} (آل عمران: 102) .

وقال الله تعالى على لسان يوسف الصديق عليه السلام, وقد كان في نعمة الملك والسلطان ونعمة لقائه مع أبيه وأخوته: {رَبِّ قَدْ آَتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآَخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ} (يوسف: 101) .

القصة الثانية:

في إحدى المعارك بين المسلمين والروم, أخذ الروم عبد الله بن حذافة ومعه بعض الأسرى المسلمين, وكان عددهم ثلاثة عشر أسيرا,فقال ملك الروم لعبد الله بن حذافة (وكان أميرهم): يا عبد الله هل تدخل معي في النصرانية وأعطيك نصف ملكي؟ وهذا إغراء بالدنيا, فقال له عبد الله بن حذافة: والله لو أعطيتني كل ما تملك وملك العرب على أن أترك دين الله ما تركته.

فقال ملك الروم: إذن نقتلك.

فقال عبد الله: هذا ما أتمناه في سبيل الله.

فجاءوا بقدر ووضعوا فيه المأء وأشعلوا النار من تحته,حتى تحول الماء إلى حميم يذيب الجبال إذا صب عليها من شدة الحرارة, فأمر ملك الروم بواحد من الثلاثة عشر ,فألقوه في القدر بين يدي عبد الله بن حذافة, فلما سقط الأسير في القدر ذاب شحمه ولحمه,وتفتت عظامه ونطق بالشهادتين ولقي ربه شهيدا,فلما جاءوا بعبد الله بن حذافة لكي يلقوه في القدر,فلما حملوه لكي يلقوه في القدر بكى,فقال الجند والحراس للملك: إن الأسير العربي يبكي, وخاف من الموت, فأمر هرقل بإحضاره بين يديه, فقال له ملك الروم: إن كنت تجزع من الموت فلماذا لا تقبل بالنصرانية وأعطيك نصف ملكي؟

فقال عبد الله بن حذافة: أو تظن أني أبكي خوفا من الموت؟ لا ولكني قلت في نفسي إنني أموت الآن فينتهي جهادي على هذه الأرض وودت لو أن لي مائة نفس تموت وتحيا في سبيل الله عز وجل لكي أغيظ كافرا مثلك.

هذا الكلام جعل ملك الروم يتصاغر أمام نفسه حتى صار مثل الذبابة,ثم قال ملك الروم: هل تقبل رأسي وأطلق سراحك؟

فقال عبدا لله بن حذافة: وتطلق معي بقية الأسرى؟

قال ملك الروم: نعم .قال عبد الله بن حذافة في نفسه: كافر أقبل رأسه في سبيل نجاتي ونجاة من معي من الأسرى,فلا غبار على هذا الفعل,وبالفعل قام وقبل رأس الملك,فأطلق الملك سراحهم,فلما وصلوا للمدينة المنورة استقبلهم سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه, وحكوا له القصة, فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: حقيق بكل مسلم أن يقبل رأس عبدا لله بن حذافة ,وأنا أبدأ بنفسي,وبالفعل قام سيدنا عمر بتقبيل رأسه.

هذه هي النوعية من الرجال التي تم تربيتها على العقيدة الصحيحة, ولذلك مما نأخذه من دروس وعبر في الجزء الثلاثين أن أول أمر في حياة الناس هي العقيدة.

كيف نبني العقيدة في نفوسنا؟

إنّ من عجائب القرآن الكريم سهولة حفظه، قال تعالى: {وَلَقَدْ يَسَّرْنَا القرآن لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ} (القمر: 17). لذلك فإنّ مجرد حفظنا لجزء الثلاثين من القرآن يكون البداية لبناء العقيدة؛ لأنّ القرآن الكريم هو كتاب الفطرة, فكلّ حرف يقرأه الطفل الصغير ينقش في صدره أن لا إله إلا الله، وينقش في صدره أنّ محمدًا رسول الله, وينقش في صدره أننا لا محالة إلى ربنا راجعون, كما ينقش في صدره أنّ الملائكة حق وأنّ الكتب حق وأن الرسل السابقين حق.

وأؤكد القول بأننا بمجرد قراءتنا للقرآن الكريم فإننا نبني العقيدة في أنفسنا، بالرغم من أن الولد الصغير لا يعي ما يقرأ، إلا أنّ الله سبحانه وتعالى ينقش الإيمان في قلبه منذ الصغر بقراءته وحفظه للقرآن الكريم, وخصوصا الجزء الثلاثون, فتصور طفلًا يقرأ: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (1) اللَّهُ الصَّمَدُ (2) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (3) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ (4)} (الإخلاص: 1-4) . في هذه الحالة ينقش التوحيد في صدره بدون الحاجة إلى معلمين.

فهذا الإمام محمد بن جرير الطبري, وهو مفسر عظيم ومحدث جليل, توفي سنة310 من الهجرة, وقد منحه الله منهجية عجيبة في التعليم, فأمير البلد أو الخليفة أمره أن يعلم أولاده ويصلح من شأنهم, فقال الإمام الطبري: أنا لا أعلِّم أولاد الملك في بيت الملك, ولكنهم إن جاءوا للمسجد مع الناس فعلى الرحب والسعة, وبالرغم من رجاء الملك وإلحاحه إلا أن الإمام أصر على موقفه, لأن العلم يؤتى إليه ولا يأتي إلى أحد, فانصاع الخليفة لذلك أمام هذا الإصرار العجيب.

فلما حضر أولاد الخليفة بدأ الشيخ في تعليمهم الحروف الأبجدية, فهو يريد تعليمهم العقيدة من خلال تعليمهم لتلك الحروف, فكتب لهم الثمانية والعشرين حرفا أو التسعة والعشرين حرفًا - على رأي الخليل بن أحمد الفراهيدي- وبعد أن كتب الشيخُ الحروفَ للأولاد قال لهم:

ما اسم الحرف الأول؟ فقالوا: ألف. قال: هل له نظير في باقي الحروف؟ فقالوا: لا. قال: وكذلك رب العزة سبحانه وتعالى ليس له شبيه ولا نظير. ربنا الوحيد الذي {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} (الشورى: 11) .

وبهذا تمكن هذا العالم الجليل من أن يغرس معنى مهمًا في نفوس الأولاد، وهو أن الله لا يشابه أحدا من خلقه: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (1) اللَّهُ الصَّمَدُ (2) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (3) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ(4)} (الإخلاص: 1-4)

ثم سألهم: الألف معوّج أم مستقيم؟ فقالوا: مستقيم. قال: "وكذلك صراط ربنا مستقيما, فالطريق الذي يوصل إلى الجنة هو الطريق المستقيم.

ثم قال الشيخ لهم: هل يوجد حرف قبل حرف الألف؟ قالوا: لا. قال: وكذلك الله سبحانه وتعالى لم يكن أحد قبله, وإنما هو أصل ذلك الوجود.

وهكذا استمرّ يعلمهم العقيدة من خلال تعليمهم للحروف الأبجدية ويقرأ عليهم القرآن الكريم, وكانت النتيجة أن رسخت العقيدة في عقول وقلوب هؤلاء الأولاد بدون جهد، كما

شبوا محافظين على عقيدتهم, والله تعالى يعلمنا العقيدة بدون جهد نبذله، قال تعالى: {وَلَقَدْ يَسَّرْنَا القرآن لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ} (القمر: 17).

وهناك أكذوبة بدأ يروج لها بعض المارقين, وهي عدم تعليم الأولاد القرآن الكريم, لأنّ القرآن الكريم يتحدث عن النار, والحديث عن النار يصيب الأولاد بحالة من الصرع والهلع, وقد يصابون بالجنون, في حين أن الله تعالى يبدأ كتابه الكريم بـ (بسم الله الرحمن الرحيم (ولم يقل بسم الله القاسي أو القهار أو الجبار أو المنتقم, ولكنه قال: بسم الله الرحمن الرحيم ,ثم يقول: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (1) اللَّهُ الصَّمَدُ (2) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (3) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ (4)} (الإخلاص: 1-4) .

ويقول تعالى: {قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (1) مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ (2) وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ (3) وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ (4) وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ (5)} (الفلق: 1-5) . فنحن نستعيذ من شياطين الإنس والجن, الذين يسعون إلى إخراج جيل يقوم بتسليم كل شيء للأعداء, يسلمون لهم الأرض والأعراض والمقدسات والفكر والثقافة والعقيدة,كل ذلك بسبب الابتعاد عن العقيدة.

لذلك علينا أن نقوم بتحفيظ هذا الجزء للأولاد, ونرغبهم في ذلك بإعلامهم أن مآلهم الجنة, كذلك نيسر لهم الأمر, كأن نقول لهم: "من قرأ "قل هو الله أحد" عشر مرات ؛ بني له بها قصر في الجنة، ومن قــرأ عشرين مرة؛ بني له بها قصران في الجنة، ومن قرأها ثلاثين مرة ؛ بني له بها ثلاثة قصور في الجنة، فقال عمر بن الخطاب – رضي الله عنه:- والله – يا رسول الله – ! إذًا لنكثرن قصورنا ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: الله أوسع من ذلك" [1], فخزائن ربنا لا تنتهي أبدًا.

كذلك علينا أن نقوم بتقريب مفهوم الجنة للأولاد الصغار, يكون ذلك بتحفيزهم لعمل الخير والابتعاد عن الشر,ونكافئهم بما لذ وطاب من الطعام, ونصور لهم أن هذا من الجنة نظير عملهم الخير وابتعادهم عن الشر, ولا غضاضة في ذلك, فطعام الجنة يشبه طعام الدنيا,ولكن الطعم مختلف, قال تعالى: {وَبَشِّرِ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (25)} (البقرة: 25).

فطعام الجنة يشبه طعام الدنيا في الأشكال والأسماء أما الطعم والرائحة فأمرهما مختلف.

لطيفة: حرف الابتداء وحرف الانتهاء في القرآن:

القرآن يبدأ بحرف الباء وينتهي بحرف السين، أي (بس) , وبس: كلمة عربية فصيحة تعني هذا ولا شيء بعده, وعليه فلا سعادة في غير القرآن الكريم. والله تعالى يقول لنا: {يَاأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ

(1) مرسل رجاله رجال البخاري. انظر: تخريج أحاديث مشكاة المصابيح الالباني392/2 وصح بلفظ: (من قرأ "قل هو الله أحد" حتى يختمها عشر مرات بنى الله له قصرا في الجنة ومن قرأها عشرين مرة بني له قصران ومن قرأها ثلاثين مرة بني له ثلاث) السلسلة الصحيحة 136/2.

(57) قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (58)} (يونس: 57-58).

والحمد لله ربّ العالمين

الدروس والعبر من سورة النبأ

إنّ الوقت لا يسعفنا لتفسير جزء النبأ كاملًا, ولكننا سنقتبس من كل سورةٍ بعض الآيات ونركز عليها, كما سنتتبع الألفاظ الغريبة ونفسّر معانيها؛ لأن عنوان دراستنا ليس تفسير جزء عم, ولكن عنوان الدراسة هو دروس وعبر من الجزء الثلاثين من القرآن الكريم.

تسمية السّورة:

السورة الأولى في الجزء الثلاثين تسمّى سورة النبأ, وتسمّى أيضا سورة (عمّ يتساءلون) .

ومن المعلوم أنّ الرسول صلى الله عليه وسلم قد قضى ثلاثًا وعشرين سنة في الدعوة, حيث قضى ثلاثة عشر عامًا في مكة, وقضى في المدينة عشر سنوات, والقرآن الكريم الذي تمّ نزوله قبل الهجرة يسمى بالقرآن المكي, والذي نزل بعد الهجرة يسمى بالقرآن المدني, ومما ينبغي أن يعلم أن جزء النبأ كاملًا كان نزوله في مكة قبل الهجرة؛ لذا يطلق عليه القرآن المكي.

فعلى مدى ثلاثة عشر عامًا فقد نزلت في مكة ستة وثمانين (86) سورة من سور القرآن الكريم, حيث أنها لم تنزل كلّها في أولّ الدعوة, ولم تنزل كلّها في وسط الدعوة, ولم تنزل كلّها في آخر الدعوة, ولكنها نزلت متفرّقة.

والسؤال: هل نستطيع أن نحدّد متى نزلت سورة النبأ؟

والإجابة: لا يوجد تحديد بالضبط متى نزلت هذه السورة, ولكنّنا علمنا من الصحابة الكرام الذين عاصروا الرسول صلى الله عليه وسلم أنّ هذه السورة مكية؛ ولكي نعلم في أي سنةٍ نزلت سورة النبأ لابد أن تكون لدينا دراية بالسيرة النبوية الشريفة.

ونحن نعلم أن أولّ آية نزلت على الرسول صلى الله عليه وسلم في غار حراء هي قوله تعالى: "اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ" (العلق: 1). ثم تتابعت الآيات, وقال الله تعالى له: {يَاأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (1) قُمْ فَأَنْذِرْ (2)}(المدثر: 1-2) .

وقد بدأت دعوته صلّى الله عليه وسلم سرية, وهذه المرحلة يطلق عليها مرحلة الدعوة السرية, حيث كان يتصل بالمقربين منه ومن لهم صلة وثيقة به، ويحدّث من يثق فيه بالإسلام سرًا, ومن بين هؤلاء زوجه خديجة رضي الله عنها, وصاحبه أبو بكر الصديق رضي الله عنه, كما تحدّث مع علي بن أبي طالب رضي الله عنه لأنه تربى في بيته, وكذلك مع بلال الحبشي رضي الله عنه لصلته به, ومع زيد بن حارثة رضي الله عنه حيث أعتقه الرسول صلى عليه وسلم وصار مولى له, ثم صار ابنًا له بالتبني قبل تحريمه. وقد استمرّت الدعوة السرية ثلاث سنوات, وكان كل من دخل الإسلام من هؤلاء يتمّ إعداده تعليمًا وتثقيفًا في دار الأرقم بن أبي الأرقم التي تعتبر دار التربية والإعداد, حيث كان صلى عليه وسلم يجتمع بهم في هذه الدار, ويصلّي بهم ويقرأ عليهم ما تنزّل عليه من القرآن الكريم.

وبعد ثلاث سنوات من تعليمهم وصقلهم, كان لا بد من الانتقال من الدعوة السرية والعمل في الظلام وتحت الأرض, إلى الخروج بالدعوة إلى النور والعمل من فوق الأرض, ولا بدّ من مواجهة الناس والجهر بدعوتهم إلى الإسلام؛ لذا نزل قوله تعالى:

{فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ} (الحجر: 94), وكان ذلك في السنة الرابعة من البعثة, وحينها جمع النبي صلى عليه وسلم الناس وعرضَ عليهم دعوته.

فالنّاس لم تعلم بوجود القرآن الكريم إلا بعد الأمر بالصدع به, أما قبل ذلك فكانت قراءة القرآن تتم بشكل سري, وأول إعلان أعلنه النبي صلى الله عليه وسلم أن قال:" اعبدوا الله ما لكم من إله غيره". وكان مشركو العرب ومن بينهم قريش يعبدون آلهة متعددة, فلما طلب منهم الرسول صلى الله عليه وسلم عبادة الله الواحد جُنّ جنونهم، يقول تعالى حكاية عنهم: {أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ} (ص: 5) فهذا الأمر الجلل- من وجهة نظرهم- غير معقول, فأين هبل واللات والعزى ومناة وبقية الآلهة؟!حتى إن أحدهم كان إلهه مصنوعًا من العجوة فإذا جاع أكله واتخذ إلها آخر مكانه, وما أكثر الآلهة التي كان يعبدها العرب!

فالنبي الكريم صلى الله عليه وسلم بدأ دعوته بتوحيد الله تعالى والكفر بالأصنام والأوثان المنتشرة في ربوع الجزيرة, فإذا استقر التوحيد في النفوس استقر كل شيء في حياة الناس؛ لذا نتساءل: أيهما أفضل وأيهما أكثر راحة أن نتبع إلها واحدا في حياتنا أم نتبع خمسة آلهة؟ بالتأكيد فإن الأفضل أن نتبع الله الواحد الأحد.

وعلى سبيل المثال: لو كنت أعمل عند عشرةٍ من الناس, وكل واحدٍ من هؤلاء يأمرني بأمر مخالف, وأنا أريد أن أرضي الجميع في وقتٍ واحد, فإنه يستحيل إرضاء هؤلاء جميعًا في وقت واحد، أما إن كنت أعمل لدى شخص واحد, فمن السهل جدًا تنفيذ أوامره وإرضاؤه؛ لأنه بمفرده هو من ينظم لي عملي ويحدد لي الأولويات، وعليه نقول إنّ الذي يعبد إلهًا واحدًا مستريح, أما الذي يعبد أكثر من إلهٍ فإنه متعب. وقد قال تعالى: {ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ} (الزمر: 29) .

لقد قال الله سبحانه وتعالى عن نفسه: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} (الشورى: 11). فهو منزهٌ عن النقائص, حيث لم يتخذ صاحبة ولا ولدًا؛ لأن من له زوجة وأولاد وأب وأم فهذا يعني أن يكون هؤلاء في سلم أولوياته واهتماماته، ذلك لأنّ الأب منا هو من يكتنف أسرته بالرعاية والاهتمام, ولو حاول أحد من الناس أن يدخل في كنفه فإنه يُتهم بالجنون؛ لأنه ليس من المعقول أن يكتنف الرجل منا الغرباء في بيته, أما إن فاض شيء بعد اكتفاء أسرته يتصدق به على من يستحق من الفقراء والمحتاجين وأولي القربى.

لذلك فالله تعالى ليس بينه وبين خلقه نسب, فالكل عبيد له سبحانه وتعالى, ويعطيهم على حسب ما قسمه لهم وعلى حسب أعمالهم.

لقد دخل الرسول صلى الله عليه وسلم يومًا على فاطمة وعلي رضي الله عنهما حيث وجدهما نائمين بعد صلاة الصبح, فأمرهما بالقيام للصلاة, فقالا: أرواحنا بيد الله إن شاء أرسلها وإن شاء أمسكها -ولكن أين المجاهدة-؟ فما زاد رسول الله عليه وسلم عن أن يضرب كفا بكف ويقول:{وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا}(الكهف: 54) [1]. لذا علينا أن نقوم لصلاة الفجر؛ لأنه وقت توزيع الأرزاق وذلك على حسب نشاط كل واحدٍ منا.

إنّ سورة النبأ تحمل دروسًا وعبرًا عظيمة، ومن هذه الدروس ما يلي:

(1) البخاري برقم(7465) ومسلم برقم(775).

ابتدأت السورة بقوله تعالى: {عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ (1) عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ (2) الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ (3) كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (4) ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (5)} (النبأ: 1-5) . وسبب الاختلاف هو أنّ بعض مشركي قريش قال عن القرآن الكريم إنه شعر, وبعضهم قال إنه سحر, وبعضهم قال إنه كهانة, وبعضهم قال إنه أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلًا, ومنهم من قال الجن تملي عليه القرآن ... ولكن الله تعالى ردّ على هؤلاء المختلفين جميعًا, وبيّن أن القرآن الكريم قد جاءهم من الله تعالى بالخير العظيم والسعادة كلها.

ومما لا شك فيه أن القرآن هو كتاب السعادة, فمن أراد أن يكون سعيدا في الدنيا فعليه بالقرآن, ومن أراد أن يكون سعيدا في الآخرة فعليه بالقرآن, ومن أراد أن يكون سعيدًا في كليهما فعليه بالقرآن, قال سبحانه وتعالى: {إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا} (الإسراء: 9) .

وقد تقدّم سابقًا أنّ أولّ حرف في القرآن حرف الباء وآخر حرف هو السين, والباء والسين تساوي كلمة (بس) وهذه كلمة عربية فصيحة, وكأن الله تعالى يقول للناس: سعادتكم أيها الناس في هذا القرآن بس, فلا سعادة لنا إلاّ في هذا القرآن؛ لذا علينا أن ننشغل بالقرآن الكريم تلاوةً وحفظا وفقها وعملا ودعوة ودفاعًا عنه، فحياتنا كلها هي القرآن, وأن نحذر أن يصرفنا أحد عنه أو يصرف أولادنا عن كتاب الله تعالى.

إنّ نعمة التوحيد تتجلى في أن جعلنا الله عز وجل من الموحدين, ولم يجعلنا كفارًا ولا مشركين, قال تعالى: {أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا (6) وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا (7) وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا (8) وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا (9) وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا (10) وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا (11) وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا (12) وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا (13) وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا (14) لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا (15) وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا (16)}.

الدرس الثاني: القرآن نعمةٌ عظيمة من نعم الله تعالى:

كيف نعلم أن القرآن الكريم منزلٌ من عند الله تعالى؟ هل يوجد أحد منا قد جرّب على الله سبحانه وتعالى الكذب- تعالى الله عن ذلك-؟ وهل يملك أحدنا دليلًا على ذلك؟

لقد قال تعالى عن نفسه: {وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا} (النساء: 87) . وقال سبحانه وتعالى: {وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا} (النساء: 122) . وقال عز وجل: {وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ} (التوبة: 111) . فهذه الأدلة قاطعة على استحالة نسبة الكذب إلى الله تعالى.

والإنسان إنما يلجأ إلى الكذب عندما يكون جبانًا ويعجز عن المواجهة, أما القادر على المواجهة فلا يكذب. فالله تعالى لا شيء فوقه ولا شيء بعده ولا شيء قبله :{لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} (الشورى: 11) . ويقول تعالى:{وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ} (العنكبوت: 22) . وقال تعالى: {تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}، فما دام ربنا هو القائل إنه أنزل هذا القرآن فعلينا التصديق بذلك؛ لأن الله هو القوي الذي لا يكذب أبدًا .

ثم إنّ القرآن الكريم معروضٌ أمامنا, فعلينا أن نتفحصه ونمحصه ونبحث فيه، وسنأتي بالنتيجة. يقول فصحاء اللغة العربية: عندما يتحدث الشخص ويكرّر في كلامه حرفًا واحدًا في كل كلماته, يعتبر كلامه كلاما ركيكًا وغير فصيح, وهناك مثالٌ حدث في الجاهلية قبل الإسلام, حيث وقع أحد الرجال من فوق ناقة يركبها, فالتف الناس حوله فقال لهم: "ما لكم تكأكأتم عليّ، كتكأكئكم على ذي جنة، افرنقعوا عنّي" والمعنى: مالكم اجتمعتم عليّ كما تجتمعون على المجنون، تفرقوا وانصرفوا عني, فهذا الكلام ليس فصيحًا أبدا.

على حين أن ربّ العزة والجلال ذكر لنا آيةً في كتابه تحوي سبعة عشر حرفًا, عندما تستمع لها تطلب المزيد، فعندما أمر الله نوحًا بأن يحمل من كل زوجين اثنين وأهله إلا من سبق عليه القول, وكان ابنه ممن رفض الركوب معهم السفينة، فقال تعالى: {وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ (42) قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ (43)}(هود: 42-43) . ثم أمر الله السماء بالإقلاع والأرض بابتلاع الماء, قال تعالى:{وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ} (هود: 44)

وعندما قال نوح يا رب أنت وعدتني بنجاة أهلي وإنّ ابني من أهلي, قال له الله تعالى:{يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ}(هود: 46) . فهذا الولد كتب عليه الشقاء, بالرغم أنه ابنه في النسب إلا أنه كافر ومقطوع عنه في الدين. ثمّ حذر الله تعالى نوحا عليه السلام أن يكلّمه في هذا الأمر مرة أخرى: {قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ} (هود: 46) . فقال نوح: {رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ}(هود: 47).

ثم رضي الله عن نوحٍ عليه السلام وقال له: {يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ} (هود: 48) . فنلاحظ في

الآية الكريمة تكرار حرف الميم سبع عشرة مرة ومع ذلك لا يوجد تناقض في المعنى ولا ركاكة في اللفظ، بل هو كلامٌ فصيح بليغ.

وكذلك يقول فصحاء العربية: إنّ تكرار حرفين في الكلام أكثر من مرة يجعل الكلام ضعيفًا, ومن ذلك قول الشاعر:

وقبر حرب بمكان قفر وليس قرب قبر حرب قبر

ومفهومه أنّ أخاه مات في مكان بعيدٍ عن الأحياء والأموات, ولا يدري كيف يزوره؛ إلا أن هذا الكلام ليس فصيحًا، في حين أننا نجد في القرآن الكريم تكرار كلمة (أم(خمس عشرة مرة، ولا يوجد غرابة في اللفظ بل هو كلام فصيح، وذلك في تقوّل المشركين على النبي صلى الله عليه وسلم وتواصيهم على أن يصبروا حتى يموت النبي الكريم ثم تموت معه دعوته، فقال تعالى: {فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ (29) أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ (30) قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ (31) أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُمْ بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ (32) أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ (33) فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ (34) أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (35) أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَا يُوقِنُونَ (36) أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ (37) أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (38) أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ (39) أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ (40) أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ (41) أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ (42) أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ} (الطور: 29-43) .

كذلك نجد في سورة الرحمن أنّ الآية:{فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ} (الرحمن: 13). قد تكررت إحدى وثلاثين مرة ولا يوجد أي غرابة في ذلك. وأيضًا في سورة المرسلات تكرر قول الله تعالى: {وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ} (المرسلات: 15) .عشر مرات وليس في ذلك أي غرابة.

إنّ القرآن الكريم يحمل في طياته الدليل على أنه كتاب منزل من عند الله سبحانه وتعالى, وليس من عند محمد صلى الله عليه وسلم. ومن الأدلة على ذلك:

1. في غزوة بدر: أرغم المشركون العباس بن عبد المطلب على الخروج مع الناس, مع أنه كان مسلمًا في السر ويخفي إسلامه, والرسول صلى الله عليه وسلم هو الذي أبقاه في مكة, لينقل أخبار قريش للنبي صلى الله عليه وسلم, وبعد الغزوة وهزيمة قريش تمّ أخذ العباس بن عبد المطلب أسيرًا, فأمره الرسول صلى الله عليه وسلم بدفع فدية نظير إطلاق سراحه, فأعلن العباس أنه مسلم وأنه هو من يأتي بالأخبار للمسلمين عن تحركات قريش, ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم أصر على أن يدفع الفدية أمام الناس, حتى لا يظهر أمره لمشركي قريش وحتى يظل ورقة رابحة وغير محروقة, ولكن العباس قال: إنه لا يملك المال اللازم للفداء, والنبي صلى الله عليه وسلم لا يدري عن حاله شيئا, وقد كان العباس قبل خروجه من مكة مع مشركي قريش يمتلك عشرين مثقالًا من ذهب, فأعطاها لزوجته، وقال لها: قد حضر ما تعلمين وخشيت على نفسي، ثم أمرها في حالة موته أن تنفقها على أطفاله حتى يشبون, ولم يطلع أحد من الناس على تلك القصة بين العباس وزوجه.

فعندما قال العباس للرسول صلى الله عليه وسلم إنه لا يمتلك شيئًا نزل جبريل عليه السلام على الفور حاملًا معه هذه الآية: {يَأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ}(الأنفال: 70). فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم العباس بن عبد المطلب بأنه يمتلك عشرين مثقالًا من الذهب, فقال العباس: والله لا يعلم بذلك إلا أنا وأم الفضل, ثم أعلن الشهادة مرةً أخرى: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله؛ فمن يكشف هذا الأمر لا تغيب عنه أمور العباد جميعًا [1].

2. في فتح مكة دعا الرسول صلى الله عليه وسلم ربه أن يأخذ عيون قريش حتى يباغتهم في ديارهم, فما كان من حاطب بن أبي بلتعة إلا أن كتب كتابًا إلى مشركي قريش يخبرهم بأن النبي صلى الله عليه وسلم يستعد لغزوكم, وأعطى الكتاب لامرأةٍ لكي توصله إلى مكة وأعطاها على ذلك أموالًا, فنزل جبريل عليه السلام وأخبر الرسول صلى الله عليه وسلم بقصة حاطب بن أبي بلتعة وما كان منه, وحدّد له المكان الذي توجد فيه تلك المرأة -حاملة الكتاب- فأرسل الرسول صلى الله عليه وسلم ثلاثة من أصحابه لإحضار الكتاب من بينهم علي بن أبي طالب رضي الله عنه, فلما وصلوا إليها أمروها بإخراج الكتاب, فأنكرت, فلما هدّدها علي بن أبي طالب بنزع ثيابها, ألقت لهم الكتاب وكانت تحفظه في ثنايا ضفائرها.

لقد أثبت هذا الكتاب خيانة حاطب بن أبي بلتعة, وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لرسول الله صلى الله عليه وسلم: دعني أضرب عنق الرجل, فإنّ الرجل قد نافق, فقال الرسول صلى الله عليه وسلم -بعد التحقيق مع حاطب بن أبي بلتعة واعترافه بنسبة الكتاب إليه وأن ذلك كان اجتهادًا منه فأخطأ- : "يا عمر إنه من أهل بدر, ولعل الله قد اطلع على قلوب أهل بدر, فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم"[2] . ونزل قوله تعالى: {يَأَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ} (الممتحنة: 1) .

3. قصة الرجل الذي طلب من زوجته ما يطلب الزوج من زوجته, فطلبت منه الانتظار إلى أن تقضي حق ربها وتؤدي صلاتها, فلما ألح عليها وتمنعت حتى تقضي صلاتها, قال لها: أنت علي كظهر أمي, فذهبت إلى الرسول صلى الله عليه وسلم, وشكت له أن زوجها قد ظاهرها وأن لديها أطفالا صغارًا إن تركتهم له ضاعوا وإن تركهم لها جاعوا, والرسول صلى الله عليه وسلم يقول لها: لا حلّ عندي, والمرأة تنظر للسماء وتبكي, وتنظر للنبي صلى الله عليه وسلم وتبكي, فنزل قول الله تعالى:{قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (1) الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ (2) وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (3) فَمَنْ

(1) مسند أحمد (105/5) قال أحمد شاكر: إسناده ضعيف.
(2) البخاري برقم(3983) ومسلم برقم(2494).

لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ} (المجادلة: 1-4) [1].

وبنزول تلك الآيات الكريمات انتهت المشكلة. قالت عائشة رضي الله عنها: سبحان من وسع سمعه الأصوات, حيث كانت عائشة رضي الله عنها في غرفتها ولا تسمع كل الكلام, إلا أن الرب سبحانه وتعالى من فوق سبع سموات قد سمع حديثها فأنزل قرآنا يقضى في هذا الأمر. إن الله تعالى لا يغيب عنه شيء في الأرض ولا في السماء. قال عز وجل: {وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ} (يونس: 61) .

وهذه المرأة التي سمع الله كلامها من فوق سبع سماوات هي خولة بنت ثعلبة، وقد وكان لها موقف مع عمر بن الخطاب أثناء خلافته، حيث قالت له: يا عمر اتق الله لقد كنت أيام الجاهلية عميرًا وأصبحت بعد الإسلام عمرًا وصرت الآن أمير المؤمنين, إعلم يا عمر أنّ من خاف الموت أمن الفوز وأنّ من خاف الحساب أمن من العذاب, فكان كبار الصحابة يعجبون ويقولون: يا أمير المؤمنين أتسمع لامرأة عجوز، فكان عمر رضي الله عنه يقول: "والله لو ظلّت تستنصحني طول اليوم ما تركتها إلاّ لأداء الصلاة ثم أعود إليها لأسمع نصحها، ثم قال: وكيف لا أسمع لها وقد سمع الله لها من فوق السبع الطباق.

4. روى ابن إسحاق أنّ عدي بن حاتم كان من أشد الناس كراهة للنبي صلى الله عليه وسلم، حيث يقول عدي: فيما بلغني ما رجل من العرب كان أشد كراهة لرسول الله حين سمع به مني، أما أنا فكنت شريفًا وكنت نصرانيا، وكنت أسير في قومي بالمرباع[2], وكنت في نفسي على دِين، وكنت ملكا في قومي لما كان يصنع بي، فلما سمعت برسول الله كرهته، فقلت لغلام كان لي عربي وكان راعيا لإبلي: لا أبالك أعدد لي من إبلي أجمالا ذللًا سمانًا فاحتبسها قريبا مني، فإذا سمعت بجيش لمحمد قد وطئ هذه البلاد فآذني، ففعل ثم إنه أتاني ذات غداة فقال: يا عدي ما كنت صانعا إذا غشيتك خيل محمد فاصنعه الآن، فإني قد رأيت رايات فسألت عنها فقالوا: هذه جيوش محمد.

قال: قلت: فقرّب إلي أجمالي، فقرّبها فاحتملت بأهلي وولدي، ثم قلت: ألحق بأهل ديني من النصارى بالشام، فسلكت الحوشية[3]، وخلفت بنتا لحاتم في الحاضر، فلما قدمت الشام أقمت بها، وتخالفني خيل رسول الله فتصيبت ابنة حاتم فيمن أصابت فقدم بها على رسول الله في سبايا من طيء، وقد بلغ رسول الله هربي إلى الشام.

قال: فجعلت ابنة حاتم في حظيرة بباب المسجد -وكانت السبايا تُحبس بها- فمر بها رسول الله فقامت إليه وكانت امرأة جزلة، فقالت: يا رسول الله هلك الوالد، وغاب الوافد، فامنن علي منّ الله عليك.

قال: "ومن وافدك؟ قالت: عدي بن حاتم. قال: الفار من الله ورسوله. قالت: ثم مضى وتركني، حتى إذا كان الغد مرّ بي فقلت له مثل ذلك، وقال لي مثل ما قال بالأمس. قالت: حتى إذا كان بعد الغد مرّ بي، وقد يئست فأشار إلي رجل خلفه أن قومي فكلميه. قالت:

---

(1) مرسل البيهقي في السنن الكبرى(385/7) والزيلعي في تخريج الكشاف(424/3).
(2) المرباع: أخذ ربع الغنيمة.
(3) الحوشية: اسم جبل بين نجد والشام.

فقمت إليه فقلت: يا رسول الله هلك الوالد، وغاب الوافد، فامنن علي من الله عليك. فقال: قد فعلت فلا تعجلي بخروج حتى تجدي من قومك من يكون لك ثقة حتى يبلغك إلى بلادك ثم آذنيني, فسألت عن الرجل الذي أشار إلي أن كلميه فقيل لي: علي ابن أبي طالب. قالت: فقمت حتى قدم من بلي أو قضاعة قالت: وإنما أريد أن آتي أخي بالشام، فجئت فقلت: يا رسول الله قد قدم رهط من قومي لي فيهم ثقة وبلاغ، قالت: فكساني وحملني وأعطاني نفقة، فخرجت معهم حتى قدمت الشام.

قال عدي: فو الله إني لقاعد في أهلي فنظرت إلى ظعينة تصوب إلى قومنا، قال: فقلت: ابنة حاتم قال: فإذا هي هي، فلما وقفت علي استحلت تقول: القاطع الظالم احتملت بأهلك وولدك، وتركت بقية والدك وعورتك. قال: قلت: أي أخية لا تقولي إلا خيرًا، فو الله مالي من عذر لقد صنعت ما ذكرت.

قال: ثم نزلت فأقامت عندي. فقلت لها وكانت امرأة حازمة: ماذا ترين في أمر هذا الرجل؟ قالت: أرى والله أن تلحق به سريعًا، فإن يكن الرجل نبيا فللسابق إليه فضله، وإن يكن ملكا فلن تزل في عز اليمن وأنت أنت.

قال: قلت: والله إن هذا الرأي. قال: فخرجت حتى أقدم على رسول الله المدينة فدخلت عليه وهو في مسجده، فسلمت عليه، فقال: من الرجل؟ فقلت: عدي بن حاتم فقام رسول الله وانطلق بي إلى بيته، فو الله إنه لعامد بي إليه إذ لقيته امرأة ضعيفة كبيرة، فاستوقفته فوقف لها طويلًا تكلمه في حاجتها, قال: قلت في نفسي: والله ما هذا بملك[1].

ومما سبق بيانه فإنه يجب علينا أن نسلّم أنّ القرآن منزلٌ من عند الله تعالى، وأنه كتاب معجز، قال تعالى: {وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (23) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ} (البقرة: 23-24) .

وإني أؤكد على هذه القضية بسبب ظهور قرآن محرف يتم تداوله في الآونة الأخيرة يتكون من عشرة أجزاء, ويتم توزيعه على النخب الراقية, والآية الأولى تقول: الم أيها المؤمنون إنكم لفي ضلال مبين، وأول القصيدة كفر, وهذا الكلام المحرف يحويه كتاب مثل المصحف الذي بين أيدينا ومكتوب عليه القرآن الكريم, ليس ذلك فحسب بل إنهم جاءوا برجل صوته جميل لكي يقرأ به على من لا يجيدون اللغة العربية وخصوصا من الأفارقة, حتى يلاقي استحسانًا كبيرا منهم, ومن ثم يطلبون الدخول في الإسلام فيتم تحفيظهم هذا القرآن المحرف. وهذا من كيد الكافرين, الذين عجزوا عن مواجهة القرآن بالحجة والدليل.

وهذا الأمر لن يكتب له النجاح؛ لأن الله تعالى يقول في محكم كتابه: {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ}(الحجر: 9). فلو أحصينا عدد حفظة كتاب الله تعالى منذ نزوله حتى الآن, ولو أحصينا عدد المصاحف التي طبعت وتم تداولها سواء نسخها باليد أو طباعتها عن طريق المطابع, ولو أحصينا شرائط الكاسيت التي تم تسجيل القرآن عليها أو أشرطة الفيديو أو غيرها لوجدت العدد يفوق الخيال. كذلك لو أحصينا من مات أو قتل في

(1) البداية والنهاية ابن كثير(57/5).

سبيل الإسلام, أو أحصينا المهاجرين من ديارهم وبلادهم في سبيل القرآن, فالنتيجة هي: {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ} (الحجر: 9) .

إنّ حفظ كتاب الله تعالى يكون بك أنت أيها المسلم, فالقرآن لا يحفظ نفسه, بل يحتاج إلى رجال يحفظونه ويحافظون عليه، ويبذلون النفس والنفيس، ويروون شجرة الإيمان بدمائهم الطاهرة الزكية حتى يبقى القرآن محفوظًا ومرفوعًا.

لقد أنعم الله على عباده بنعم كثيرة، فقال: {أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا (6) وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا (7) وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا (8) وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا (9) وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا (10) وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا (11) وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا (12) وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا (13) وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا (14) لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا (15) وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا (16)}(النبأ: 6-16) إلا أنّ أجل النعم في الوجود هي نعمة القرآن؛ لأنّ الإنسان بالقرآن يصير مسلما, وإذا صار مسلما عاش سعيدًا ومات سعيدًا.

وإنّ الدرس الذي ينبغي أن نتعلمه من سورة النبأ: أنّ القرآن نعمة عظيمة من الله، وإنّ الواجب هو أن نعظّم كتاب الله تعالى ونحتضنه ونحمله في صدورنا ويراه الناس في سلوكنا, ولا بد أن نأخذ بالأسباب بأن نقوم بتحفيظه لأولادنا ونسائنا وآبائنا وأمهاتنا وخدمنا وأرحامنا وجيراننا, ونبذل كل شيء في سبيل أن يبقى القرآن فلو اجتمع أهل الأرض على أن يمنعونا من كتاب الله فلن نمتنع حتى لو نموت من أولنا إلى آخرنا. نحيا بالقرآن ونعيش مسلمين ونموت مسلمين, قال تعالى:{يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ" (آل عمران: 102) . وهو الدعاء الذي دعا به يوسف الصديق عليه السلام: "رَبِّ قَدْ آَتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآَخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ} (يوسف: 101) .

الدرس الثالث: اليوم الآخر حق لاشك فيه فكن مستعدًا له:

لكي أكون مسلمًا، فإن عليّ الإيمان بالساعة التي ألقى فيها الله عز وجل يوم القيامة.

إنه لا بد أن يكون لدينا يقين لا شك فيه أننا سنلقى الله تعالى سواء طال الزمان أو قصر, وما دمنا سنلقى الله تعالى فالأفضل أن نلقاه وهو راضٍ عنا, وليس أن نلقاه وهو علينا ساخط. يقول تعالى: {إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا (17) يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا (18) وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا (19) وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا} (النبأ: 17-20). حيث يأمر الله إسرافيل بأن ينفخ في الصور فنموت جميعًا, ثم ينفخ فيه أخرى فنقوم من شتّى بقاع الأرض إلى أرض المحشر في فلسطين.

وكيف سنأتي إلى ذلك المكان؟

سنكون فريقين: فريق يركب مطايا من اللؤلؤ التي كانت ترعى في الجنة (وهي إبل نجيبة تم وضع السرج والركاب عليها(والفريق الآخر هم الكفار الذين يحملون ذنوبهم على أكتافهم وعلى ظهورهم وتتفاوت أحجام هذه الأحمال, فمنهم من يكون ذنبه كالجبال, ومنهم من يكون ذنبه أدنى من ذلك, وقد يكون من هؤلاء دعاة من دعاة الضلال الذين يرغمون الناس على الكفر, فهؤلاء يمشون على وجوههم وهم عميٌ وبكم وصم, قال

تعالى: {وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا} (الإسراء: ٩٧).

يمشون على هذه الحالة إلى أن يصلوا إلى أرض المحشر, وفي ذلك اليوم تتبدل الأرض وتتغير السماء, حيث تنشق السماء وتنزل ملائكة السماء الأولى وتحيط بالناس على شكل حلقات, وكذلك تنزل ملائكة السماوات الثانية والثالثة والرابعة والخامسة والسادسة والسابعة, ويعملوا حولنا حلقات ودوائر, فلا مهرب ولا ملجأ من الله إلا إليه, يقول تعالى: {يَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا (25) الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا (26) وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا (27) يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا (28) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا (29)} (الفرقان: 25-29) .

لقد أكّد الله تعالى وقوع اليوم الآخر وما يكون فيه من تغيراتٍ وأهوال، فقال عزّ وجل: {إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا (17) يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا (18) وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا (19) وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا (20) إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا (21) لِلطَّاغِينَ مَآبًا (22) لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا (23) لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا (24) إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا (25) جَزَاءً وِفَاقًا (26) إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا (27) وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا (28) وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا (29) فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا (30)} (النبأ: 17-30)

ثم ذكر الله لنا في القرآن الكريم الجنة وما فيها من نعيم ومتاع يتنعم بها أهلها ويتمتعون, ثم يتساءلون: أين فلان وفلان؟ ثم يرون أهل النار, ويعرفون سبب عذابهم فيها، قال تعالى: {كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (38) إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ (39) فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ (40) عَنِ الْمُجْرِمِينَ (41) مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ (42) قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ (43) وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ (44) وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ (45) وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ (46) حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ (47) فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ (48)} (المدثر: 38-48) .

ويقول أحد ساكني الجنة إنه كان لي قرين, يحاول إثنائي عن أداء الصلوات في المسجد, وكان يسخر مني ويستهزئ بي, وعندما كنت أذكّره بيوم الحساب كان يكفر بهذا اليوم, فأريد أن أرى هذا القرين في أي مكان هو الآن، فيطلع فيراه في قعر الجحيم، قال تعالى: {قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ (51) يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ (52) أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ (53) قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ (54) فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ (55) قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ (56) وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (57) أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ (58) إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (59) إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (60)}(الصافات: 51-60).

إنّ مكافأة الصنف الثاني- وهم أهل التقوى- هي الجنة والرضوان من الله تعالى، قال المولى سبحانه: {إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا (31) حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا (32) وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا (33) وَكَأْسًا دِهَاقًا (34) لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا (35) جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا (36) رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا (37)} (النبأ: 31-37) .

وإنّ أدنى أهل الجنة منزلة من له مثل الدنيا وعشرة أمثالها, ومن له مُلكٌ يسير في ظلّه ألفي عام ولا ينتهي, هذا أقل أهل الجنة فما بالنا بالمتوسط أو بصاحب الدرجات العلا!!

إنها جنة عظيمة وأملاك لا حصر لها، ولذلك قال تعالى: {حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا (32) وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا (33)}(النبأ: 32-33) . فالمرأة من نساء الجنة جعلهن الله تعالى كواعب: أي عذارى نواهد, وفوق ذلك فهي شابة لا تزيد عن ثلاثة وثلاثين (33) عامًا.

ثم يقول سبحانه: {وَكَأْسًا دِهَاقًا}فهي كؤوس مليئة بالخمر، لكنها ليست كخمر الدنيا. قال الشيخ الشعراوي رحمه الله: "خمر الدنيا رائحته كريهة، وطعمها مثل الحنظل, وشاربها يلقيها في معدته دون أن يتلذذ بها, أما خمر الآخرة فشاربها يتلذذ من حلاوة طعمها ورائحتها".

كذلك ساكنو الجنة يتذوقون العسل المصفى واللبن الذي لم يتغير طعمه والماء المتجدد العذب، قال تعالى: {مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آَسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ} (محمد: 15) .

ومما تقدّم من المقارنة بين الصنفين فبالتأكيد لا يستوي أهل الجنة وأهل النار.

ثم يقول الله تعالى: {يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا} (النبأ: 38) . والروح هو جبريل عليه السلام, وله ستمائة جناح كل جناح يسد ما بين المشرق والمغرب, فجبريل والملائكة يقفون صفًا, وعدد الملائكة لا يعلمهم إلا الله: {وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ} (المدثر: 32) .

وقد أخبرنا الرسول الكريم صلى الله عليه وسلّم بأنه رأى الملائكة يحجون البيت المعمور حيث يدخله كل ليلة سبعون ألف ملك لا يعودون إلى قيام الساعة من كثرتهم, وكل هؤلاء يقفون لا يتكلمون أي كلمة, فإذا كان الملك المقرب لا يتكلم, فمن يتكلم؟!

إنه لا يتكلم إلا من يأذن الله سبحانه وتعالى له بالكلام, وإن أول من يتكلم هو نبينا محمد صلى الله عليه وسلم. قال الله تعالى: {لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا} (النبأ: ٣٨) .

لقد حذرنا الله سبحانه وتعالى من ذلك اليوم؛ لكي نأخذ حذرنا ونعمل صالحًا يقربنا منه سبحانه وينجينا من عقابه وعذابه, قال تعالى: {ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ مَآَبًا (39) إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا (40)} (النبأ: 39-40).

إنّ الموت يأتي فجأة بدون إنذار, وإن لم يأت فجأة فإنّ مقدماته تأتي وبعدها تكون الوفاة، وقد نبّهنا الله تعالى في كتاه الكريم فقال لنا: {يَأَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (9) وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ (10) وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ} (المنافقون: ٩ – ١١) .

لقد كان نبي الله يعقوب عليه السلام صديقًا لملك الموت, وكان ملك الموت يأتي لزيارته, وكلما أتاه يقول له يعقوب عليه السلام: أنت زائر أم قابض؟ فيقول له: زائر، فقال له: عندما تأتي قابضا أرسل لي إنذارًا حتى أستعد للموت، فقال له: لك ذلك, فغاب زمانًا ثم جاء له، فقال له يعقوب: زائر أم قابض؟ فقال ملك الموت: بل قابض, فقال له: ألم أقل لك أن ترسل لي رسالة قبل المجيء, فقال ملك الموت: لقد أرسلت لك رسلًا قبل مجيئي, قال يعقوب: لم يصلني منك شيئا, فقال ملك الموت: بياض رأسك بعد سواده, وكبرك بعد شبابك, وانحناء صلبك بعد اعتداله, ومرضك بعد صحّتك.

ومما يحكى أنّ أحد الرجال اصطحب أسرته في رحلة، وفي الطريق أشار له شخص وقال له: أنا المال أريد الركوب معك فوافق، وبعد قليل أشار له شخص آخر فوقف له, فقال: أنا الوظيفة فسمح له بالركوب, وبعد قليل رأى رجلا وضيئا نحيفًا فقال: أنا الإسلام أريد الركوب معك, فقال له: لا يوجد مكان, فمشى وترك الإسلام, وبعد قليل وقف أمامه رجل ضخم منعه من المرور, فقال له: من أنت؟ فقال: أنا ملك الموت, فقال له: انتظر حتى أحضر الإسلام, فرفض ملك الموت, وهكذا انتهى الوقت وضاعت الفرصة. قال تعالى: {حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (99) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (100)} (المؤمنون: 99-100) .

لذا علينا أن نأخذ حذرنا ونهتم بأنفسنا ونسعى لإنقاذها؛ لأن الدنيا لن تغني عن الآخرة شيئًا. يقول صلى الله عليه وسلم: "ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه ليس بينه وبينه ترجمان، فينظر أيمن منه فلا يرى إلا ما قدّم، وينظر أشأم منه فلا يرى إلا ما قدّم، وينظر بين يديه فلا يرى إلا النار تلقاء وجهه، فاتقوا النار ولو بشق تمرة، فإن لم يجد فبكلمةٍ طيبة"[1].

ومما تقدم يمكن تلخيص الدروس والعبر المستفادة من سورة النبأ على النحو التالي:

1. التمسك بالتوحيد مهما كانت العواقب والإغراءات والشهوات التي تقف عائقا في طريقنا, ومهما كلفنا ذلك من تضحيات.

2. القرآن الكريم هو كتاب الحياة والسعادة, ولا بد من فهمه والعمل بما فيه من أجل النجاة في اليوم الآخر. قال الله تعالى: {يَاأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ} (يونس: 57) . فلو منحنا ماء الحياة بدون القرآن الكريم فإن علينا أن نرفض ذلك

3. اليقين التام الذي لا يشوبه شك أو ريب بمجيء اليوم الذي نرجع فيه إلى الله تعالى سواء طال الزمن أو قصر، فاليوم الآخر سيأتي سواء رضينا أم لم نرض, فلو قدر الله لنا الموت سنموت, ولا نستطيع تأخير موعد موتنا ثانية أو أقل من ذلك. وفي ذلك اليوم سيحاسب الإنسان الذي عمل السيئات بالسوء، ويحاسب الإنسان الذي عمل الصالحات بالحسنى.

والحمد لله ربّ العالمين.

(1) البخاري برقم(7512) ومسلم برقم(1016).

الدروس والعبر من سورة النازعات

ابتدأت سورة النازعات بهذه البداية الجميلة، فقال سبحانه: {وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا (1) وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا (2) وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا (3) فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا (4) فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا (5)}.

ومن أبرز الدورس المستفادة من سورة النازعات ما يلي:

الدرس الأول: أحسن جوار الملائكة فإنهم خلقوا لمصلحتك:

إنّ الآيات التي وردت في مقدمة سورة النازعات هي أوصافٌ للملائكة الكرام, وكأن الله تعالى يذكر لنا أوصاف الملائكة ليقول لنا آمنوا بأنّ من أجل نعم الله عليكم هو وجود الملائكة.

ويتساءل البعض: هل الملائكة من النعم التي وهبها الله لنا؟ وكيف ذلك؟

ونقول: نعم الملائكة من العم العظيمة لنا؛ لانهم مشغولون بنا, ويدبرون أمورنا فيما يتصل بالرزق: فمنهم من يأتينا بالماء، ومنهم من يأتينا بالطعام, ومن يأتينا بالهواء, فالملائكة تسوق لنا الأرزاق ومشغولون بنا بأمرٍ من الله عز وجل.

إنّ الله تعالى لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء, فهو الحيّ القيوم، لكنه يريدنا أن نتعلّم سنّة الأخذ بالأسباب, إذ لا يأتي أمرٌ بهدوء أو راحة بال, وبسبب ضعفنا فإن الله تعالى يساعدنا عن طريق الملائكة الذين يدبرون أمر العباد فيما يختص بالرزق وما يتصل بالأمن, قال تعالى: {لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ} (الرعد: 11) . وقال تعالى: {وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ} (الانفطار: ١).

فلا يعجب الواحد منا من ذلك, فالملك يمشي مع الإنسان ويدفع عنه كل شر, فلو قذفَ شخصٌ بحجر تجاه شخص آخر, فبأمرٍ من الله تعالى فإن الملك يحول بينه وبين إصابته.

فالإنسان يعيش آمنا معافى ولا يعلم من الذي يدفع عنه الأذى, فالله هو الذي يدفع عنا الأذى بواسطة هذا الملك, فالملك يدبر الرّزق ويدبّر الأمن ويدفع الطائع لله للأمام ويأخذ بيده للنجاة ويشجعه على ذلك حتى يبلغ بر الأمان، قال صلى الله عليه وسلم: "إن العبد إذا خرج من بيته ناويًا الطاعة وكل الله به ملكًا معه رايته من نور, يظله من حين يخرج حتى يرجع, ما يجد بابًا من أبواب الخير إلا ينهزه نحوه, وما يجد بابًا من أبواب الشر إلا ويزجيه عنه".

فقوله تعالى: "وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا".أي أنّ الملائكة تقوم بتنشيط الناس الطيبين وتشجعهم، فعلى سبيل المثال: لو أن شخصًا منا يريد حضور هذه الدروس بسيارته وكانت نيته صادقة لوجه الله تعالى، فإنه يجد الطرق معبدة وممهدة ومهيأة له, وأيضًا عندما أنوي قراءة وردي من المصحف فإن الملك يزيّن لي قراءة القرآن الكريم ويجعلني يقظًا, وأكون في منتهى السعادة وانشراح الصدر, وهكذا.

وكما يقومون بتشجيع الطائعين, فإنهم يقومون كذلك بتخذيل العصاة طاعةً لله وغضبًا له, فاذا خذل الملائكةُ العصاةَ استلمه الشيطان ليغريه بالشهوات وبالسعادة الزائفة, وعندما يوقعه في معصية الله تعالى فإنه يتبرأ منه، قال تعالى: {كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ * فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ} (الحشر: ١٦ – 17) . بل إنّ الشيطان يدافع عن

نفسه يوم القيامة حين يُلقي الإنسان بتبعة أفعاله السيئة على الشيطان، قال الله تعالى: {وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} (إبراهيم: 22) .

فالملائكة يدبّرون الأمن للإنسان ويدبرون الطعام والشراب, وكذلك يدفعونه للخير, ويتركوه إذا وقع في المعصية حتى يعلم الإنسان أنّ الشياطين الإنسية والجنية لن تنفعه بشيء أبدا، وأنّ الله هو النافع والباقي سبحانه وتعالى؛ فيعود العاصي إلى رشده.

وإنّ من أعمال الملائكة المكرمين أنهم يبعدون الشياطين عنا, فإذا نام الإنسان بدون وضوء فإن الشيطان يعقد على قفاه، فيجعله ينوم نومًا عميقًا إلى طلوع الشمس, ولا يساعده الملك بل يلتزمه الشيطان حتى يستيقظ, كما جاء في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلي الله علية وسلم "يعقد الشيطان علي قافية رأس أحدكم إذا هو نام ثلاث عقد يضرب علي كل عقدةٍ مكانها عليك ليلٌ طويلٌ فارقد، فإن استيقظ فذكر الله تعالي انحلّت عقدة، فان توضأ انحلت عقدة، فإن صلّى انحلّت عقدة فأصبح نشيطًا طيّب النفس وإلا أصبح خبيث النفس كسلان"[1], أما إن نام الإنسان على طهارةٍ فإن الملك يدعو له ويثبته ويقويه ويريحه، ففي الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "من بات طاهرا بات في شعاره ملك لا يستيقظ ساعة من الليل إلا قال الملك: اللهم اغفر لعبدك فلانا فإنه بات طاهرا"[2]. وعندما يحين صلاة الفجر يوقظه لأداء الصلاة.

لقد كان النبي صلى الله عليه وسلم في مرض موته يغيب ثم يفيق ويقول: بل الرفيق الأعلى، قالت عائشة رضي الله عنها: سمعته يقول: "لا إله إلا الله إنّ للموت لسكرات، لا إله إلا الله إن للموت لسكرات"[3]. وعندما دخلت ابنته فاطمة رضي الله عنها بكت عند دخولها؛ لما رأت من حاله، ولأنها كانت معتادة كلما دخلت على أبيها الكريم صلى الله عليه وسلم, أن يقف ويقبّلها بين عينيها, لكنه في مرض موته لم يستطع الوقوف لها فقال لها صلى الله عليه وسلم: "ادني مني يا فاطمة, فهمس لها بأذنها فبكت, ثم قال لها مرة ثانية: ادني مني يا فاطمة, فهمس لها مرة أخرى بأذنها فضحكت, فبعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم سألوا فاطمة: ماذا همس لك فبكيتي وماذا همس لك فضحكت؟ قالت فاطمة: أول مرة قال لي: يا فاطمة إني ميت الليلة فبكيت, ولما وجد بكائي رجع وقال لي: أنت يا فاطمة أول أهلي لحاقًا بي فضحكت"[4].

ثم قال الرسول صلى الله عليه وسلم: أخرجوا من عندي بالبيت وقال: "ادني مني يا عائشة, فدنت منه فنام على صدرها، قالت السيدة عائشة رضي الله عنها: كان يرفع يده للسماء ويقول: بل الرفيق الأعلى بل الرفيق الأعلى، فكنت أعرف -من خلال كلامه- انه يُخّير بين حياة الدنيا أو الرفيق الأعلى.

(1) البخاري برقم(1142) ومسلم برقم(776).
(2) حسنه الألباني في صحيح الجامع رقم (3936).
(3) البخاري برقم(4449).
(4) أخرجه البخاري في الصحيح رقم(3623).

لقد دخل الملك جبريل عليه السلام على النبي صلى الله عليه وسلم وقال له: إنّ ملك الموت بالباب ويستأذن أن يدخل عليك، وما استأذن من أحد قبلك, فقال له: إئذن له يا جبريل, فدخل ملك الموت وقال: السلام عليك يا رسول الله, أرسلني الله أخيّرك بين البقاء في الدنيا وبين أن تلحق بالله, فقال النبي صلى الله عليه وسلم: بل الرفيق الأعلى بل الرفيق الأعلى, فوقف ملك الموت عند رأس النبي صلى الله عليه وسلم وقال: أيتها الروح الطيبة روح محمد ابن عبد الله اخرجي إلى رضى من الله ورضوان ورب راضٍ غير غضبان. تقول السيدة عائشة: فسقطَت يد النبي صلى الله عليه وسلم وثقل رأسه في صدري, فعرفت أنه قد مات, فلم أدري ما أفعل، فما كان مني غير أن خرجت من حجرتي.

إنّ غيبوبة النبي صلى الله عليه وسلم إنما هي لرفع درجاته, لكي يصل إلى المقام المحمود، أما غيبوبة الكفار, فإنّ الله يحول بينهم وبين كلمة التوحيد؛ لأنهم قضوا حياتهم في الكفر والمعاصي والسيئات, فلا يستحقون أن يرحمهم الله في هذا الوقت؛ لذا يظلون غارقين في الأمراض والآلام والأوجاع, ولا يذكر الواحد منهم العاقبة أو المصير.

إنّ الملائكة الكرام يشوقون المحتضِر إلى الجنة، فعندما يأتي ملك الموت تأتي الملائكة أمام المحتضر تشوقه للجنة، ويرى مقعده من الجنة, ففي حديث أبي هريرة - رضي الله عنه- قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "اذا وضع الرجل الصالح على سريره قال: قدموني قدموني، وإذا وضع الرجل يعني السوء على سريره قال: يا ويلي أين تذهبون بي"[1]. فرجل السوء لا يريد الموت لأنه يرى النار، قال تعالى: {النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آَلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَاب} (غافر: 46).

إن الله تعالى يقول لنا إني خلقت لكم خلقًا عظيمًا من الملائكة مسخّرون لمصالحكم وقائمون عليكم, سواء بجلب الخير لكم أو بدفع الشر عنكم؛ لذا ينبغي أن نعاملهم المعاملة التي تليق بهم, من خلال الابتعاد عن المعاصي.

والمعصية نوعان: معصية فعلية, ومعصية قلبية, يقول تعالى:{قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}(آل عمران: 29) ويقول سبحانه وتعالى: {لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} (البقرة: 284). ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم: "إن الله تجاوز لي عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه"[2]. وفي الرواية الثانية: "ما حدّثت بها أنفسها ما لم تتكلم به أو تعمل"[3].

وهذا يدل على أنّ حديث النفس لا يؤاخذ العبد به, وليس المعنى أنّ الملك لا يعلم بذلك بل يعلمه الملك وهذا ليس علمًا بالغيب، لأنّ العبد إذا أضمر سوءًا خرجت منها ريحًا تزكم أنوف الملائكة؛ لذا ينبغي لنا أن نحسن جوار الملائكة وذلك بعدم الوقوع في المعصية, فإن وقعنا فيها فيجب علينا أن نبادر بالتوبة والإنابة والطاعة والرجوع إلى الله عزّ وجل.

---

(1) رواه احمد(39/15) والنسائي (1907) وصححه الألباني في صحيح النسائي.

(2) حديث حسن رواه ابن ماجة(1675) والبيهقي في السنن الكبرى(61/10) وغيرهما, وصححه الألباني في صحيح ابن ماجة برقم(1675).

(3) البخاري برقم (5269) ومسلم برقم (127).

ومن أعمال الملائكة الكرام: أنهم يستغفرون لمن في الأرض: قال الله تعالى:{وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} (الشورى: ٥). وقال عزّ وجل: {الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ} (غافر: 7).

الدرس الثاني: التذكير.

في سورة النازعات يذكرنا الله تعالى باليوم الآخر, وقد تقدم تذكيره لنا في سورة النبأ, فقال تعالى: {يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ (6) تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ (7) قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ (8) أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ (9) يَقُولُونَ أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ (10) أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً (11) قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ (12) فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ (13) فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ(14)} (النازعات: 6-14).

والتذكير له أهمية كبرى في حياتنا اليومية وأعمالنا المعيشية، لأنّ الإنسان من طبيعته النسيان, وعلاج النسيان التذكير, قال تعالى: {فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى} (الأعلى: 9). وقال تعالى: {وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ}(الذاريات: 55) . وإنّ من أعمال الرسل عليهم الصلاة السلام التذكير باليوم الآخر, قال تعالى:{يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ}(الجمعة: 2) . أي يذكّرهم على الدوام.

وقد كان المشركون يستبعدون العودة للحياة مرة أخرى, ويقولون لو حدث ذلك ستكون كرتنا خاسرة. لكن النبي صلى الله عليه وسلم أخبر بقرب ذلك اليوم فقال: "كيف أنعم وقد التقم صاحب القرن القرن"[1].

فدلّ هذا على أنّ النبي صلى الله عليه وسلم يخاف من هذا اليوم، وكذلك الملائكة وسائر الأنبياء والصالحون, حتى الدواب والبهائم، إذ لا يأمن إلا العصاة.

ويقول النبي صلى الله عليه وسلم أيضًا: "خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة فيه ولد آدم, وفيه اهبط من الجنة, وفيه مات, وفيه تقوم الساعة, وما من دابة سوى الإنس والجن, إلا وهي مصيخة ليلة الجمعة ونهارها خشية أن تقوم الساعة"[2]. فينبغي أن تكون ليلة الجمعة للطاعة والإنابة لله تعالى, وليست ليلة للمجون والمعاصي والمجاهرة بالذنوب, إذ كيف يأمنون ويبارزون الله بالمعاصي وقد التقم إسرافيل القرن ينتظر الأمر بالنفخ, وحينها يكون من على ظهر الأرض في بطنها، ثم يكون من في بطنها على ظهرها، قال تعالى: {فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ (13) فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ(14)} (النازعات: 13-14) .

فقوله بالساهرة: يعني على ظهر الأرض، ونحن من يسهر على ظهر الأرض، ساهرين طوال الليل، وحين يؤذن لصلاة الفجر، نقبل على النوم وتضيع علينا صلاة الفجر، وكان الأولى للعاصي أن يطهر نفسه من الموبقات والمعاصي التي يجنيها بالصلاة في وقتها, لعلّ الله أن يتجاوز عنه ويتوب عليه، ولعل ركعتي الفجر تكون كفارة لذنوبه

(1) الترمذي برقم(3243) وقال حسن وقال الألباني صحيح انظر صحيح الترمذي برقم(2343).
(2) رواه أبو داود برقم(1064) والنسائي برقم(1429) وقال الألباني: صحيح.

السابقة، وسببًا في توبته إلى الله توبة نصوحًا؛ فركعتا الصبح من السنن المؤكدة، وهما خير من الدنيا وما فيها، وخير مما طلعت عليه الشمس، فإن كانت هذه منزلة ركعتي السنة، فما بالنا بركعتي الفجر ما هو جزاؤها؟!

الدرس الثالث: الاستقامة وطاعة الله تعالى طريقك للنجاة:

إنّ علينا أن نكون مستقيمين طائعين لله تعالى، وذلك بمراقبة الله سبحانه وتعالى أولًا في السر والعلانية، بحيث نكون على يقين تام بأنّ الله يراقبنا في الليل والنهار، والدخول والخروج، والقيام والقعود، والضحك والبكاء، والصمت والكلام، وفي كل الظروف والأوقات.

ومن طبيعة البشر أن ينسوا أو يتناسوا ما ارتكبوا من موبقات، لكنّ الله تعالى لا ينسى المعصية التي يرتكبها العباد، وذلك لأن الله تعالى لا ينام ولا يغفل، أما البشر فينامون ويغفلون، قال تعالى: {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ} (البقرة: 255). ويقول سبحانه وتعالى: {وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ} (الحديد: 4), ويقول عزّ وجل: {لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ} (سبأ: 3).

إنّ المراقبة لله تعالى تجعلنا نفعل الخير ونتجنب الشر، قال المولى سبحانه: {وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى (40) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى (41)}. وإنّ على الإنسان الذي يخشى الله تعالى حق خشيته ويتقه حق تقاته أن يستعد من الآن، فلا يقول إلا خيرًا ولا يعمل إلا صالحًا، حتى تكون المكافأة في الآخرة جنّة المأوى. وإنّ مثله كمثل رجل غريب ليس له دارٌ ولا منزل في ذلك المكان، ثم هُدي إلى بيت من بيوت الإيواء ليستريح فيه، فلا يمكن بحالٍ من الأحوال أن يفرّط فيه أو يرضى به بديلًا. قال تعالى: {وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى (40) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى(41)}.

أما من أصرّ على عدم الاستماع إلى صوت الهداية وصوت العقل والوعيد والنذير، وفي المقابل يستمع إلى صوت الهوى والنفس والشهوة، ويفعل ما يحلو له أن يفعل طاعة للشيطان، فقد قال فيه رب العزة والجلال: {فَأَمَّا مَنْ طَغَى (37) وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (38) فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى (3)}.

إنّ من يعش في الدنيا معتمدًا على قوّته وجبروته في استحلال أموال الناس وأعراضهم ودمائهم، ويساعد في فتنتهم في دينهم ويسعى لتحويلهم من موحّدين إلى مشركين، ويتجاوز الحدود المرسومة والحدود الحمراء، فقد قال رب العزة والجلال فيه: {فَأَمَّا مَنْ طَغَى (37) وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (38) فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى}.

وإنّ سبب الطغيان هو تعلق الشخص بالدنيا حتى صار عبدًا لها فلا يريد أن يفارقها بحالٍ من الأحوال.

وعليه فإنّ عاقبة الفجّار والفسّاق -الذين يعملون السيئات ولم يقيموا لحكم الله وزنًا - هي النار، أما الصالحون المراقبون لله تعالى فإنّ عاقبتهم هي الجنة، قال تعالى: {وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى (40) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى(41)}.

الدرس الرابع: الدنيا ليست شرًا محضًا (ولا تنس نصيبك من الدنيا):

إنّ الدنيا حلوة خضرة، والله تعالى لم يحرمنا منها، لكن أمرنا أن نأخذ منها بقيود وبقدْرٍ، وهذه القيود هي على النحو التالي:

القيد الأول: أن يكون الأخذ من حلال.

القيد الثاني: أن يكون بعزة نفس.

القيد الثالث: أن يكون الإنفاق وسطًا.

القيد الرابع: أن يُؤدّى حق الله فيها.

القيد الخامس: أن تكون الدنيا في أيدينا لا في قلوبنا.

فإذا حققت تلك القيود الخمسة، فاملك من الدنيا ما شئت.

فما الفائدة أن أمتلك الدنيا من حرام, ومن أكل حقوق الناس بالباطل؟ وما الفائدة أن أكسب الأموال بالذل والهوان وبيع الدِّين؟ وما فائدة الأموال المكتسبة حين أبخل بمال الله على الله وعلى عباد الله وحتى أبخل بها على نفسي؟ وما فائدة أن أكسب أموالًا لا حصر لها، ولا أعطي ذوي الحقوق حقوقهم، وفي الأخير لا يبقى معي منها شيء عاجلًا أو آجلًا؟ بل ما الفائدة أن أكون لعبة تحركها الدنيا كما تريد وتشتهي؟

والسؤال المهم: كيف نتعامل مع الدنيا؟

والجواب: أن نتبع القيود الضوابط الشرعية في التعامل معها؛ خشية الانزلاق فيها والغرق في ملذاتها وشهواتها.

وهناك قصة سردتها في كثيرٍ من المواقع والمواقف، ومن عادتي أنني لا أهتم بالجديد بقدر ما أهتم بالقديم وأحاول تكراره ما استطعت، ما دام في ذلك الفائدة والعبرة التي تعمّ المسلمين, بالإضافة إلى أنّ تكرار الحقائق يستقر ويثبت في القلوب والنفوس.

هذه القصة أنّه عُرض على رجل من بني إسرائيل المُلك، فقال: أنا لا أقبل الملك ولا أرفض حتى أسأل القس، فلما ذهب إلى القس سأله: أنه عُرض عليه الملك فهل يقبله أم يرفضه؟ فقال له القس: أنا لا آمرك ولا أنهاك ولكني سوف أضع الدنيا أمامك، وأنت لك الحرية في الاختيار. فقال الرجل للقس: هات ما عندك؟ فقال القس: مثل الدنيا والإنسان كمثل رجلٍ اشترى دارًا ودفع فيها خالص ماله، وكان في الدار غرفة مغلقة، وحين فتح الغرفة وجد فيها حيّة، فذهب إلى البائع الذي اشترى منه الدار، فقال له: أنا لم أشتر منك ثعابين، ولكني اشتريت منك دارًا لكي أسكن فيها أنا وأهلي، فكيف تبيعني دارًا فيها حية تؤذيني وتؤذي زوجتي وأولادي وطيوري وبهائمي؟! لذا أنا أريد الرجوع في هذه البيعة.

فقال البائع: إنّ هذه الحية هي مصدر الخير، ولكن يجب عليك أن تكون حذرًا في التعامل معها، قال له: كيف ذلك؟ قال: إنّ الحية تبيض كل يوم بيضة من ذهب؟ وبالفعل تحقّق المشتري من ذلك وأيقن أن الحية تبيض كل يوم بيضة من ذهب، وقد طلب منه البائع أن يدخل الغرفة كل يوم على حذر ويأخذ البيضة الذهبية لكي ينتفع بها، ثم يغلق الباب جيدًا خلفه حتى لا تخرج الحية من تلك الغرفة، وحذّره مرارًا وتكرارًا ألاّ ينسى إغلاق الباب عند خروجه.

فكان الرجل يذهب كل يوم إلى الغرفة، ويأخذ تلك البيضة الذهبية، ثم يخرج ويغلق الباب جيدًا خلفه، واستمر على هذا الحال ثمانية أشهر، وفي أحد الأيام أخذ البيضة

الذهبية، ومن شدّة الفرح نسي أن يغلق الباب وراءه، فخرجت الحية من الغرفة وقتلت حماره، ثم عادت إلى مكانها، فأراد الرجل أن يرجع في البيعة، لكنه تفاجأ عند تفقده الحية أنها قد باضت بيضتين من ذهب، فتراجع عن فكرة الرجوع في البيعة، وآثر البيضتين بحجة أنّ الحمير تملأ السوق، وسوف يشتري حمارًا آخر.

واستمرّ الرجل فترة من الزمن يأخذ كل يوم بيضتين، وفي أحد الأيام نسي الباب مفتوحًا فخرجت الحية فقتلت الشاة, فلما أراد أن يرجع في البيعة، تفقد الحية فوجدها قد باضت ثلاث بيضات، فتراجع عن البيعة وقال: إن السوق مليءٌ بالغنم، وسوف أشتري الكثير بدلًا عنها.

ثم استمرّ فترة من الزمن يأخذ كل يوم ثلاث بيضات من ذهب، إلى أن نسي الباب مفتوحًا في أحد الأيام، فخرجت الحية فقتلت الولد, فلما أراد أن يرجع في البيعة، تفقد الحية فوجدها قد باضت أربع بيضات من ذهب، فتراجع عن فكرة العودة في البيع، وأقنع نفسه بأنه مازال وزوجته شابين وسوف يعوضّهما الله عن هذا الولد خيرًا. واستمر يأخذ أربع بيضات ذهبية كلّ يوم، وفي أحد الأيام نسي الباب مفتوحًا، فخرجت الحية، فقتلت زوجته, فلما أراد أن يرجع في البيعة، ذهب إلى الحية فوجدها قد باضت خمس بيضات من ذهب، فتراجع عن فكرة العودة في البيع، وترحّم على زوجته، وقال النساء كثير، وربنا سيعوضنا خيرًا وظلّ فترة من الزمن كل يوم يأخذ خمس بيضات ذهبية، وفي أحد الأيام دخل الغرفة وأخذ من تحت الحية خمس بيضات، ونسي أن يغلق الباب وراءه، فخرجت الحية فقتلته.

لقد مات كلّ من في البيت، وبقي الذهب كما هو مكدّسًا!!

إنّ الحية هي الدنيا، من يأخذ حذره ويغلق الباب لا يأتيه الأذى منها، أما من يترك الباب مفتوحًا فإنّ الأذى سيتوالى عليه حتى يقتله.

وإنّ غلق باب الدنيا هو العمل بالقيود السابقة، وهي: أن يكون الأخذ من حلال، وبعزة نفس، وأن يكون الإنفاق وسطًا، وأن يؤدّى حق الله فيها، وأن تكون الدنيا في أيدينا لا في قلوبنا. فإذا أخذنا بهذه القيود الخمسة فقد أخذنا حذرنا وأغلقنا الباب, وبذلك تكون الدنيا مطيتنا إلى الجنة، أما إذا تجاهلنا تلك الشروط ونسيناها، فسنكون عرضة للهلاك والبوار، وهذا هو الخسران المبين.

إنّ الدنيا ليست مرفوضة باطلاق، إنما هي مقدّمة للآخرة، فلا آخرة بدون دنيا، أما من يدعوا إلى تطليق الدنيا والعيش في أحد الأكواخ أو في أحد الصوامع، فهذا الشخص لا يفهم شيئًا، بل لا بد من الانغماس في الدنيا والعيش فيها، ولذلك عندما سئل العلماء من أفضل: الغني الشاكر أم الفقير الصابر؟ قالوا: الغني الشاكر؛ لأن الغني الشاكر تزدهر الدنيا أمام ناظريه، وتدعوه في كل لحظة للانغماس في الشهوات والملذات لكنه يقاوم، أما الفقير الصابر فإنه لا يجد شيئًا يفعله، فقد يكون سبب طاعته أنّ الدنيا ليست في يديه، فلو كانت الدنيا في يديه ربما أصبح مجرمًا من المجرمين الكبار.

ومما يذكر: أنّ قرية من القرى كانت تختار كل خمس سنوات أميرًا يحكمها، وبعد مرور خمس سنوات، يقومون بنفيه إلى غابة بجوار القرية، وهذه الغابة مليئةٌ بالحيات والأسود والحيوانات المفترسة، وبعد دقائق من نفيه لا يرى له أثرًا, واستمروا على ذلك زمانًا حتى أحجم الناس عن تولي الإمارة والملك؛ لأنه لا فائدة في أن يحكم الواحد خمس

سنوات يعيش خلالها برفاهية وتكون الدنيا طوع بنانه، ثم يكون مآله في النهاية بين أنياب الحيوانات المفترسة التي لا تبقي ولا تذر.

لقد عاش أهل القرية سنوات طويلة دون أمير، إلى أن جاء رجل من البادية حافي القدمين، ممزّق الثياب، أشعث الرأس، باديًا عليه الفقر والمسكنة، فقال لهم: إني أريد أن أكون أميرًا عليكم! فاتّهموه بالجنون، وأنه يكفيه ما فيه من فقر وبؤس، دون أن يضيف هلاكه بعد خمس سنوات من توليه الإمارة.

فقال لهم الرجل: هذا شأني، ولا دخل لكم في ما أفعل. وبعد أن صار ملكًا، كان أول قرارٍ أصدره هو الأمر بزيارة الغابة، فأخذ معه المهندسين والعمال، ثم أمر بعمل حديقة عملاقة، خصصّ فيها أماكن للزواحف، وأماكن للحيوانات المفترسة، وأمر بقطع بعض الأشجار وشق الأنهار وحفر الآبار وزراعة الأشجار المثمرة: كالتفاح والبرتقال والرمان...وغير ذلك.

ثم أمر بتعبيد الطرق، وبناء القصور والمنتزهات، واستمر العمل الدؤوب خمس سنوات متصلة في تلك الغابة، وفي اليوم الأخير من الخمس سنوات، قيل له: اليوم سوف نلقي بك في هذه الغابة، فقال لهم: إنني أنتظر ذلك اليوم بفارغ الصبر، وبالفعل ذهب إلى الغابة فوجدها كأنها قطعةٌ من الجنة.

وهنا نقول: إنّ من الممكن أن أمهّد لنفسي مكانًا طيبًا عند الله تعالى، حين أعمل الصالحات وأتجنّب الموبقات والسيئات، وبذلك يكون مصيري هو طريق الفلاح، وذلك مصداق قوله تعالى: {وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى (40) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى (41)}. إنّ الذي ينهى نفسه عن كل ما يغضب الله سبحانه وتعالى، ستكون له العاقبة الحسنى بعد الموت، قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (30) نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآَخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ (31) نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ (32)} (فصلت: 30-32) .

إنّ من المؤسف حقًا أنّ بعض الناس يكون جل همّهم هو التمتع العاجل، ولا يهمهم ماذا سيحدث لهم غدًا، مع العلم أنّ العاصي لا يستطيع أن يكون سعيدًا في حياته مطلقًا، وذلك كما قال تعالى: {وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى} (طه: 124) . وقال عز وجل: {وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا} (الجن: 17) .

وإنّ أقل ما يعانيه العاصي أنه لا يشبع من ملذّات الدنيا، مهما كانت كثيرة في يديه، قال عليه الصلاة والسلام: "من كانت الدنيا همّه جعل الله فقره بين عينيه وفرّق عليه شمله ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب له"[1]. فبالرغم أنّ خزائنه ممتلئة بالأموال، إلا أنه يدعي الفقر والحاجة. أما الطيبون فلهم شأن كبير عند الله تعالى، وعون يجدونه في أمور حياتهم، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ومن كانت الآخرة همه جعل الله غناه في قلبه وجمع له شمله وأتته الدنيا وهي راغمة"[2]. فقد يكون البعض لا يملكون من حطام الدنيا إلا النّزر اليسير، ولكنك إن رأيتهم حسبتهم أكثر الناس أموالًا.

(1) الترمذي برقم(2465) وابن ماجة برقم(3329) وصححه الألباني في صحيح الترمذي وصحيح ابن ماجة.
(2) نفس الحديث السابق.

لقد جاء أحد الفقراء إلى أحد الصالحين يشكو حاله ويقول: إني لا أملك من الدنيا شيئًا، فقال له الرجل الصالح: بل إنك تملك منها الكثير، فقال الفقير: كيف ذلك؟ قال له: لو سُحب منك العينين، وقيل لك: لا نرجعهما لك إلا في مقابل مليوني دينار هل تقبل بذلك؟ قال: نعم. ثم قال له: ولو سحب منك اللسان ولن يرجع إليك حتى تدفع عشرة ملايين دينار هل تدفع المبلغ لو كان معك؟ قال: نعم، وظلّ يعدد له النعم التي يملكها، حتى أنّ أموال الدنيا لا تكفي لتلك النعم. قال تعالى: {وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا" (ابراهيم: 34) . وقال سبحانه: "وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ} (النحل: 53). وقال تعالى: {وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً} (لقمان: 20) .

إنّ الغنى ليس بكثرة العرض، وإنما هو غنى النفس. وإنّ الرجل الطيب تمشي الدنيا وراءه، وتكون خادمة له؛ لأنه صار خادمًا لله، قال صلى الله عليه وسلم في الحديث القدسي: "ابن آدم خلقت كل شيء لك وخلقتك لي فلا تشغل بما خُلق لك عما خُلقت له"[1].

إنك حين تسمع إلى التصوير القرآني الجميل الذي وصف الله به حال فرعون وتلك النعم التي تركوها، فستعلم أنهم عاشوا في نعمٍ لا حصر لها، قال تعالى: {كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (25) وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (26) وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ (27)} (الدخان: 25-27)، ولكنه تجبر وتغطرس وقال أنا ربكم الأعلى، وطغى واستكبر وحارب موسى وهارون عليهما السلام، قال تعالى:{هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى (15) إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (16) اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (17) فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى (18) وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى (19) فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى (20) فَكَذَّبَ وَعَصَى (21) ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى (22) فَحَشَرَ فَنَادَى (23) فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى (24) فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى (25)} (النازعات: 15-25) .

وإنّ من رحمة الله تعالى أنه لم يهمل فرعون بل أمهله إلى أن عبر البحر هو وجنوده فأطبق عليهم البحر فأغرقهم أجمعين، فأراد فرعون في آخر تلك النهاية المؤلمة أن يؤمن، فقال له رب العزة والجلال: {آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (91) فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ (92)}(يونس: 91-92). أي أنّ جسد فرعون محفوظ إلى الآن بعد أن أنجاه الله بجسده، ليكون لمن خلفه آية إلى يوم القيامة.

إنّ الطامة الكبرى أن يحرص الناس في وقتنا الحاضر على زيارة آثار الفراعنة الذي ناصبوا الله العداء بكفرهم وظلمهم، مع أن النبي صلى الله عليه وسلم قد حذّر من الوقوف على آثار الظلمة خوفًا من أن يصيبنا ما أصابهم، فإن اضطررنا للمرور على آثارهم فيجب أن نسرع السير، قال صلى الله عليه وسلم عن أصحاب الحجر: "لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم، لا يصيبكم ما أصابهم"[2].

(1) لا أصل له.
(2) البخاري برقم(433) ومسلم برقم(2980).

إنّ إكرام الشخص هو دفنه بعد موته، ولكن أين فرعون الآن؟!

لقد قدّر ر الله له ألاّ يدفن فرعون حتى الآن كي يكون عظة وعبرة لنا جميعًا، قال تعالى: {فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ} (يونس: 91) .

إنه لا ينبغي لأحدنا أن يقول: أحيا اليوم وأموت غدًا، لأنّك إن حييت اليوم ستحيى غدًا، وإن مت اليوم ستموت غدًا، وإن الحياة إنما تكون بدين الله، والموت بترك دين الله. قال تعالى: {أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ} (الأنعام: 122) . وقال تعالى: {وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} (الشورى: 52) . وقال تعالى: {يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ} (الأنفال: 24) .

إنّ الله تعالى قد انتقم من فرعون وجنوده، وكافأ موسى والذين اتبعوه بالحياة الطيبة، كذلك سيكافئنا نحن إن عملنا الصالحات واجتنبنا المعاصي والسيئات. قال تعالى: {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} (النحل: 97) . وإن علينا أن نشفق على أنفسنا بطاعة الله سبحانه وتعالى ومراقبته؛ لئلا يصيبنا ما أصاب فرعون وقومه، فتكون النار هي المأوى.

الدرس الخامس: رتّب أولوياتك وعليك بما ينفعك:

لقد أخبرنا الله تعالى أنّ الساعة آتية لا ريب فيها، وأيضًا أخبرنا النبي صلى الله عليه وسلم أنّ بعثتة هي من علامات الساعة، فما دام أنه قد بعث عليه الصلاة والسلام فعلينا أن نتوقع الساعة في أي لحظة وحين، لأن الساعة تأتي بغتة، وإنّ العاقل منا لا يسأل متى الساعة، لأنّ ذلك من الغيب، وإنما المهم السؤال عما ينجي من أهوالها. قال تعالى: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا (42) فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا (43) إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا (44) إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا (45) كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا (46)} (النازعات: 42-46) .

روى الشيخان أنّ رجلًا جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: متى الساعة؟ فأعرض عنه، فقال الصحابة: كره مقالته، ثم جاءه عن اليمين وسأله: متى الساعة؟ فأعرض، فقال الصحابة: كره مقالته، وجاءه عن الشمال فقال: يا نبي الله متى الساعة؟ فأعرض عنه، وبعد حين سأل النبيُّ صلى الله عليه وسلم: "أين السائل عن الساعة؟ فقال الرجل: أنا يا رسول الله. فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: ماذا أعددت لها؟ فقال الرجل: ما أعددت لها كثير صلاةٍ ولا صيام، ولكني أحب الله ورسوله، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: أنت مع أحببت" وفي رواية: "المرء مع من أحب"[1].

إنّ هذا توجيهٌ من النبي صلى الله عليه وسلم أن ينشغل المرء بالأمر النافع من الأشياء.

(1) البخاري برقم(6169) ومسلم برقم(2640).

وكذلك كان رد الصحابة الكرام لمن سألهم عن أمورٍ ليست هامة، ومن ذلك:

1. جاء رجل إلى عائشة رضي الله عنها وقال لها: لو زنى رجل بدجاجة وولدت الدجاجة، هل يقام عليه الحد أم لا؟ فقالت: وهل وقع ذلك؟! قال: لا، قالت: حينما يقع تعال فاسألني.

2. جاء رجل إلى ابن عمر رضي الله عنهما فقال له: هل دم البعوض يبطل الصلاة؟ فقال له: من أين أنت؟ قال: من العراق. قال ابن عمر: قتلتم ابن بنت النبي صلى الله عليه وسلم وتسأل عن دم البعوض!

إن الواجب على المسلم هو أن يسأل عن الأمور المهمة، وقد قال رجل للشيخ عبد الرحمن عبد الخالق: أنت يا شيخ تضيع أوقات الناس ولا تعرف كيفية تدريس العلم, فقال: لماذا؟ قال: تركتم أصول المسائل، وتتكلمون في توافه المسائل. فلم يرد عليه الشيخ، فقال الرجل: أما أصول المسائل: فالناس الذين يربطون الأزرار مخالفون لسنّة النبي صلى الله عليه وسلم، ولا بد أن نفك الأزرار، وأنا قمت بتأليف رسالة أخذت مني وقتًا طويلًا حتى أنجزتها، واسم الكتاب هو: "شد الزنار في أنّ ربط الأزرار ينافي أخلاق الطيبين الأخيار". إن اسم الكتاب كافٍ لتشكيل لجنة للبحث في إجازته أو عدم إجازته. وإن كون العقل ينشغل بهذه الأمور، فهذا يعني أنه عقلٌ تافه.

ومن الحكمة في هذا :

- أنّ نجارًا كان لا يَعرف من أمور الكتابة والقراءة شيئًا، غير أنه يستطيع أن يعد ويحسب الأرقام الصغيرة، فرأى رجلين يختلفان في مقدار الممسوح من الرأس، هل الربع أم النصف، أم الرأس كله؟ ولما استفحل الخلاف بينهما، تدخّل هذا النجار وقال: إنّ هذا الرأس عليه مؤامرة من الأعداء لقطعه، فعليكم حمايته أولًا، ثم بعد ذلك اختلفا كيف شئتما.

- أنه جاء رجلٌ إلى أحد خلفاء بني العباس، وقال: أنا تعلمت مهارة من المهارات: فأحضر إبرة خياطة وغرسها في الأرض، ثم جاء بأخرى فقذفها فوقع سنها في ثقب الإبرة، ثم جاء بإبرة ثالثة وقذفها فوقعت في ثقب الإبرة الثانية، وهكذا إلى أن تحولت إلى سلسلة من الإبر، فأمر الخليفة بمكافأته بعشرة درهم لمهارته في الرماية، ثم أمر بضربه عشرة أسواط؛ لأنه اشتغل بشيءٍ لا يعود على الأمّة بخير، وكان الأحرى به أن يشتغل بالنافع من الأشياء الذي يعود عليه وعلى الأمّة بالخير، ويترك ما لا فائدة منه.

وهكذا نقول لمن يسأل عن موعد الساعة: أنّ بعثة النبي صلى الله عليه وسلّم من علامات الساعة؛ لذا كان الأحرى أن يكون السؤال: ما الذي ينجي من أهوالها؟

إنّ من الأدلّة على قرب الساعة أنّ الناس سيسألون يوم القيامة كم لبثوا في الدنيا، فيجيبوا بأنّ ما لبثوه بعض يوم بل ساعة فقط، قال تعالى:{قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ (112) قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ (113)} (المؤمنون: 112-113) . فذلك العمر الطويل كأنّه يوم أو بعض يوم. وقال تعالى: {وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ (55) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (56)} (الروم: 55-56). والساعة عند أهل اللغة تطلق على البرهة من الزمن سواء زادت ام قصرت، والساعة ستون دقيقة، وتطلق الساعة ويراد بها يوم القيامة.

وهناك من أحصى عمر الدنيا التي تعيش فيها أمة محمد صلى الله عليه وسلم والتي أعمارهم ما بين الستين إلى السبعين عامًا، مقارنة بيوم الحساب الذي مقداره خمسون ألف سنة، فكان مقدار الستين والسبعين بالنسبة إلى خمسين ألف سنة أنّ زمن الدنيا دقيقتان وخمسون ثانية.

فهذه الدنيا الطويلة العريضة التي يتقاتل عليها الناس، لم تكمل ثلاث دقائق. إنّ الإنسان العاقل هو الذي يزهد فيها ولا يجعلها نصب عينيه، بل ينظر إلى الحياة الأخرى الباقية، ويقدم عملًا صالحًا ينفعه عند لقاء الرب سبحانه وتعالى.

إنّ علينا ترتيب الأولويات، بأن نقدم الأهم فالمهم، ثم الأمور الثانوية، فليس كلّ قضية نسأل فيها، ولا نسأل عن كل ما هب ودب، ولا ينبغي لنا أن نضيع أوقات الناس بمثل ذلك، ومن السخرية أنّ إحدى المدن اليونانية كانت تحت الحصار، فبدل أن يهب الفلاسفة للمعاونة في إنقاذ المدينة خوفًا من أن تقع في أيدي الأعداء المحاصرين، كانوا يشغلون أنفسهم: أيهما أسبق: البيضة أم الدجاجة!

ومن ترتيب الأولويات في مجال الدعوة أنّ أحد الدعاة العاملين في مجال الدعوة الذي صبر سنوات وسنوات حتى هدى الله به كثير من الناس، استطاع بفضل الله أن يقنع أحد البعثيين بفريضة الصلاة التي هي أهم شعائر الدين، والتي تنهى صاحبها عن الفحشاء والمنكر، بعد أن كان ذلك البعثي لا يصلي مطلقًا، حيث أقنعه بصلاة الجمعة فقط أسوة بالنصارى الذين يصلون في كنائسهم مرة في الأسبوع، ثم بعد بضعة أشهر أقنعه بأن يصلي صلاة الصبح وصلاة العشاء فقط في اليوم، وكان ذلك من اختياره، خشية أن يراه أحدٌ وهو يصلي بالنهار، واستمر على ذلك شهور عديدة، إلى أن هداه الله بالمواظبة على سائر الصلوات في أوقاتها.

والحمد لله رب العالمين

الدروس والعبر من سورة عبس

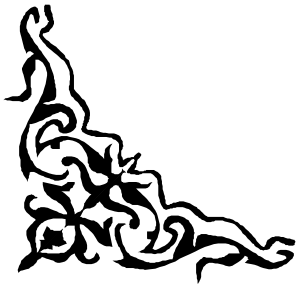

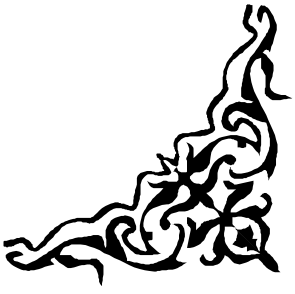

سبق أن قلنا إننا لا نفسّر هذه السور، وإنما نضع أيدينا على الدرس والعبر لكي تكون زادًا لنا في الطريق، وقد تقدّم أن ذكرنا في سورة النبأ أن أهم الدروس هو الاهتمام بقضية التوحيد، بحيث نعيش مسلمين ونموت مسلمين، فلا نفرط في إسلامنا تحت أي تأثير، لا في تأثير الشدة ولا في تأثير الرخاء.

ثم ذكرنا الدروس والعبر من سورة النازعات، والتي من أبرزها: إحسان العلاقة مع الملائكة، حيث إنهم جيراننا ويعملون لمصلحتنا، فهم من خير الخلق وخير الجيران.

ومما ذكر في حسن الجوار: أنه كان هناك شاعر بالعراق يقال له أبو دلف، وكان له جوار من أحسن ما يكون، والذي يجلس إلى جواره ويعيش بجواره كأنه يَطعم المنّ والسلوى، فضاقت بذلك الشاعر الحال، فاشتري دارًا خارج البلد بسعرٍ أقل، لكي يوفّر بعض المال، فسمع بذلك جاره، فقال له: كم عُرض عليك في هذه الدار؟ قال: أربعة آلاف درهم، فقال له: خذ ثمانية، فقال له: لماذا؟ فقال: أربعة إعانة على أمرك، وأربعة أشتري بها حسن جوارك؛ وهو إنما فعل ذلك خشية أن يأتيه جار لا يعرف طبيعة حاله، فيريه النجوم في وضح النهار.

وفي سورة عبس دروس وعبرٌ مستفادة وهي على النحو التالي:

الدرس الأول: معيار التفاضل عند الله هو التقوى:

من المعلوم أنّ النبي صلّى الله عليه وسلم كان مهتمًا بدعوته أشدّ ما يكون الاهتمام، حيث كان صلّى الله عليه وسلم يحزن إلى الدرجة التي يضيق معها صدره عندما يرى كافرًا مصرًا على كفره، بل يكاد يهلك نفسه أسفًا على عدم استجابتهم له، قال تعالى: {فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا} (الكهف:6). وقال سبحانه: {لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ"(الشعراء:3). وقال تعالى: "فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ}(فاطر:8).

لقد وصفه الله تعالى بأنّه حريص على أمّته رحيم بها، فقال عز وجل: {لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ}(التوبة:128)

إنّ مهمة الرسول الكريم صلّى الله عليه وسلم هي التبليغ فقط، قال تعالى: {مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ} المائدة:99). أما الهداية فهي بيد الله وحده، قال سبحانه: {إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ}(القصص:56).

لقد بلغ من اهتمامه عليه الصلاة والسلام أنّ أي شخص كان يعرض عليه خطة فإنه يناقشها معه رجاء إجابته، ثم يعطيه الجواب الصحيح القاطع، ومن ذلك أنّ عظماء المشركين كأبي جهل وغيره جاؤوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا: يا محمد، هل تريد منا أن ندخل في الدين الذي تدعو إليه؟ قال: نعم، قالوا: اطرد عنك الضعفاء، لأننا لا ندخل أبدًا في دين يتبعه أمثال بلال وخباب وصهيب، فهؤلاء عبيد عندنا، فكيف تسمح أن يقف السادة والعبيد في مكان واحد وعلى قدم المساواة؛ لأن المساواة تعني أنّ المعايير قُلبت، وأن الفوارق بيننا وبينهم قد زالت، فإن كنت تريد منا الإسلام فعليك أولًا أن تطرد هؤلاء الضعفاء من العبيد والأرقاء.

فأجابهم الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم بأنّ في عقولهم سفه، وأنّ الرحمة لا تتنزل إلا بسبب هؤلاء الضعفاء، وأنّ ربّ العزة لا يعطي عطاءه ولا يكون عفوه إلا بسبب هؤلاء الضعفاء، وقد قال صلى الله عليه وسلم: "هل تنصرون وترزقون الابضعفائكم"[1].

لقد بيّن لهم الرسول صلى الله عليه وسلم أنّ من يطرد الضعفاء من العبيد والأرقاء فإنه يطرد نفسه من رحمة الله سبحانه وتعالى.

إنّ كل إنسان ضعيف هو مصدرٌ من مصادر الرحمة، فالطفل الصغير رحمة من الله، واليتيم رحمة من الله، والأعمى رحمة من الله، والأعرج رحمة من الله.

لقد جاء النبي صلى الله عليه وسلم بهذا الكلام من أخيه نبي الله نوح عليه السلام، حيث قال تعالى عن ملأ قوم نوح عليه السلام: {فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ}(هود:27). وقال تعالى: {قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ}(الشعراء:111). لقد أعلنوا صراحة: أنه مستعبدٌ إيمانهم طالما أنّ الأراذل- في زعمهم-قد اتبعوا نوحًا عليه السلام.

لكن نوحًا عليه السلام حسم هذه المسألة واصفًا إياهم بالجهل فقال:{وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ (114) إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ" (115) (الشعراء:114-115). وقال: "وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (29) وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (30)} (هود:29-30). إنه من المستحيل أن أطرد هؤلاء الضعفاء أو أن أتخلى عنهم، وهم معي ليلًا ونهارًا، لأنّ الرحمات والبركات إنما تتنزل عليّ بسببهم.

إنّ نوحًا عليه السلام بعمله هذا، قد أوصد الباب في وجوه المشركين- إذ لا مفاوضة في هذا الموضوع مطلقًا- وزيادةً على ذلك أظهر لهم أنّ الضعفاء الذين استجابوا لله وللرسول مقدّمون عليهم.

إنّ البعض من الناس إنما يعتمدون في قياسهم للآخرين على يملكون من أموال، وفي نظرهم أنّ من لا يملك المال يصير ضعيفًا، كما يقيسون غيرهم بالصحة، فمن لا صحة له فهو ضعيف، وأيضًا يقيسون الآخرين بالوجاهة، فمن لا وجاهة له فهو ضعيف، وكذلك يقيسون بالرياسة والوظيفة، فمن لا رياسة له ولا وظيفة له فهو ضعيف.

إنّ المقياس الحقيقي للناس هو مقياس الحق سبحانه وتعالى، وهو الإيمان والعمل الصالح، أما مقاييس الناس بعضهم لبعض فهي مقاييس غير ثابتة وتفتقر إلى معايير صحيحة.

إنّ المشركين عندما يأسوا من إيقاف دعوة النبي صلى الله عليه وسلم التي يزداد انتشارها في أقطار الأرض، أرادوا أن يصرفوا عنه الفقراء والضعفاء، وهكذا فإنّ صاحب الشر يريد منك فقط أن تجلس معه على الطاولة، وبمجرد أن تجلس معه للحوار تبدأ في العد التنازلي والتراجع عن المبادئ العظيمة، لكن جلوس الرسول صلى الله عليه وسلم على الطاولة لا يعني أبدًا أنه تنازل عن مبادئه، بل هو مستمسك بها.

(1) البخاري برقم(2896).

لقد طلب المشركون من النبي صلى الله عليه وسلم أن يجعل لهم مجلسًا مستقلًا بهم، فقالوا: اجعل لنا مجلسًا وللعبيد والضعفاء مجلس آخر، فنحن في الصباح وهم في المساء، أو نحن اليوم وهم غدًا؛ لأنه لا ينبغي أن نجلس نحن السادة أصحاب الملابس الناصعة والروائح الطيبة الذكية، مع هؤلاء العبيد أصحاب الملابس الرثة وروائح العرق، جنبًا إلى جنب.

فرأى الرسول صلى الله عليه وسلم أن يجعل لهم مجلسًا خاصًا بهم، ورأى أنه لا غضاضة في ذلك لعل الله يهديهم للإسلام، ثم من اهتدى للإسلام سيعلم أنه لا فرق بينه وبين أخيه المسلم سواء في الجنس أو اللون أو الشكل، فبمجرد أن جاء هذا الخاطر في صدر الرسول صلى الله عليه وسلم، أنزل الله عليه قوله تعالى: {وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا} (الكهف:28).

فلما نزلت هذه الآية الكريمة لم يتأخر الرسول صلى الله عليه وسلم في الخروج إلى الناس حتى يلبس ثياب الخروج، بل خرج من فوره بثياب النوم إلى المسلمين الجالسين في المسجد, فوجد هؤلاء الضعفاء يقرؤون القرآن، فجلس بينهم، وقال: الحمد لله الذي أمرني أن أصبر نفسي مع أمثالكم.

لقد أغلقت هذه الآية الكريمة من سورة الكهف الأبواب في وجوه المشركين، حيث لم يقبل النبي صلى الله عليه وسلم أن يخصص للضعفاء مجلسًا فضلًا عن طرهم.

وبعد أن يأس المشركون من إجابة طلبهم فقد هداهم مكرهم إلى التفاوض في الدِّين الذي جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام، فقالوا له: تعبد إلهنا يومًا، ونعبد إلهك يومًا. وبينما كان النبي صلى الله عليه وسلم يتحدث مع رهطٍ من قريش يرجو إسلامهم، لأنّ في إسلامهم إسلامٌ لكثير من قومهم إذا بعبد الله بن أم مكتوم ينادي النبي صلى الله عليه وسلم، ويطلب منه أن يعلمه مما علمه الله.

إنّ عبد الله بن أم مكتوم (الأعمى) - هو من أصحاب الأعذار - وقد أسلم مع بداية الدعوة، وكان عنده بعض الأسئلة التي يريد أن يستفسر عنها من النبي صلى الله عليه وسلم، لكن الرسول صلى الله عليه وسلم أعرض عنه بحجة المصلحة العامة وأنّ وراء هذا التفاوض إسلام قريش كلها، أو سحب البساط من هؤلاء الزعماء لكي لا يكونوا حجر عثرة أمام الدعوة، وهذا إنما هو حرصٌ من النبي صلى الله عليه وسلم وحبًا منه لقومه؛ لذا فقد أعرض عن عبد الله بن أم مكتوم، ولم يعطه اهتمامًا حيث غض الطرف عنه مؤقتًا ظنًا منه أنه مسلم ويتحمل بعض الشيء، أما زعماء قريش وأصحاب الرأي فيها فلا يتحملون ذلك، لكن الوحي لم يمهله فنزل جبريل عليه السلام بسورة عبس، التي ابتدأت بعتاب النبي صلى الله عليه وسلم، قال تعالى: {عَبَسَ وَتَوَلَّى (1) أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى (2) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى (3) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى (4) أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى (5) فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى (6) وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى (7) وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى (8) وَهُوَ يَخْشَى (9) فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى (10)}(عبس:1-10).

إنّ الدرس الأول الذي نستفيده من سورة عبس هو أنّ المعيار الأول عند الله تعالى هو التقوى، قال تعالى: "إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ" (الحجرات:13). لذا علينا أن نقيس الناس

بهذا المقياس، الذي استمر النبي صلى الله عليه وسلم يقيس الناس به حتى انتقل إلى الرفيق الأعلى.

فقد مرّ رجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال لرجل جالس عنده: "ما رأيك في هذا؟ فقال: رجلٌ من أشراف الناس، هذا والله حري إن خطب أن ينكح، وإن شفع أن يشفع، قال: فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم مر رجل، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما رأيك في هذا ؟ فقال: يا رسول الله، هذا رجل من فقراء المسلمين، هذا حري إن خطب أن لا ينكح، وإن شفع أن لا يشفع، وإن قال أن لا يسمع لقوله، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :هذا خير من ملء الأرض مثل هذا"[1].

إنّ الذي ترونه سيدًا مطاعًا في قومه قد يكون عند الله غير ذلك، والذي ترونه أشعث أغبر قد يكون عند الله عظيمًا.

لقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يضرب لأصحابه الأمثال ويقص عليهم القصص النافعة، ومن ذلك أنه عليه الصلاة والسلام قصّ عليهم قصة امرأة من بني إسرائيل فقال: "بينما صبي يرضع من أمّه, فمر رجل راكب على دابة فارهة وشارة حسنة، فقالت أمّه: اللهم اجعل ابني مثل هذا, فترك الثدي وأقبل إليه فنظر إليه, وقال: اللهم لا تجعلني مثله, ثم أقبل على ثديه فجعل يرتضع. قال الراوي: فكأني أنظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يحكي ارتضاعه بإصبعه السبابة في فمه. فجعل يمصها. قال: ومرّوا بجارية وهم يضربونها ويقولون: زنيت, سرقت, وهي تقول: حسبي الله ونعم الوكيل, فقالت أمه: اللهم لا تجعل ابني مثلها, فترك الرضاع ونظر إليها فقال: اللهم اجعلني مثلها, فقالت: مر رجل حسن الهيئة فقلت: اللهم اجعل ابني مثله، فقلت: اللهم لا تجعلني مثله. ومروا بهذه الأَمة وهم يضربونها ويقولون: زنيت، سرقت، فقلت: اللهم لا تجعل ابني مثلها. فقلت: اللهم اجعلني مثلها قال: إن ذاك الرجل كان جبارًا، فقلت: اللهم لا تجعلني مثله. وإن هذه يقولون لها: زنيت ولم تزن، وسرقت ولم تسرق، فقلت: اللهم اجعلني مثلها"[2].

مثل هذه القصص كان الرسول صلى الله عليه وسلم يسردها للناس لكي يغرس فيهم الميزان الذي ينبغي أن يقاس الناس به، وهو التقوى، قال تعالى: "إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ" (الحجرات:13).

وفي السنة الثامنة من الهجرة، نقضت قريش شروط صلح الحديبية، وأعانت قبيلة بكر على خزاعة، وظنوا أنّ النبي عليه الصلاة والسلام لن يعرف ذلك، فجاء أبو سفيان - زعيم مكة - إلى المدينة من أجل تجديد الصلح، ظنًا منه أنّ النبي لم يعلم بنقض قريش له، فرآه بلالٌ وبعض الصحابة من فقراء المهاجرين، فقالوا: "والله ما أخذت سيوف الله من عنق عدوّ الله مأخذها! فقال أبو بكر رضي الله عنه: أتقولون هذا لشيخ قريشٍ وسيّدهم؟ فأتى النبيَّ صلى الله عليه وسلم فأخبره، فقال: "يا أبا بكر لعلك أغضبتهم، لئن كنت أغضبتهم لقد أغضبت ربك", فأتاهم أبو بكر فقال: يا أخوتاه أأغضبتكم؟ قالوا: لا. يغفر الله لك يا أخي"[3].

(1) البخاري برقم(6447).
(2) البخاري برقم(3436) ومسلم برقم(2550).
(3) مسلم برقم(2504).

وأيضًا فهناك تعليمٌ آخر لأبي بكر رضي الله عنه: فقد كان له ابن خالةٍ ينفق عليه، وهو مسطح بن أثاثة، ولما اتُّهمت عائشة رضي الله عنها في حادثة الإفك، كان مسطح هذا من بين الذين تكلّموا في الإفك، فتأثَّر أبو بكر رضي الله عنه من ذلك، وقال: هذا أمرٌ لم نتّهم به في الجاهلية، أبعد أن أعزنا الله بالإسلام نتّهم به، فأقسم بالله أن يقطع عطاءه عن مسطح بن أثاثه، ومَنع عنه العطاء.

ويعتبر مسطح بن أثاثه من الصحابة المجاهدين المهاجرين، ومن طبيعة الإنسان أنه يصيب ويخطئ؛ لذلك فقد نزلت الآية تنهى الصديق عن الامتناع في النفقة، فقال تعالى: {وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} (النور:22). فبكى الصديق وقال: يا رب بلى أحب أن تغفر لي، وقام بوصل مسطح بن أثاثة مرة أخرى. فمع أنّ مسطح بن أثاثة رجلٌ بسيط إلا أنّ الله رفع من قدره بتقواه لله تعالى.

إنّ الصحابة الكرام رضوان الله عليهم قد طبقوا هذا المعنى في حياتهم، ومن ذلك أنّ عمر رضي الله عنه في زمن خلافته قد خصّص لكل مسلمٍ عطاء سنويًا يأخذه من الدولة، فجاء أسامة بن زيد وعبد الله بن عمر لأخذ عطائهما، فسمح عمر لأسامة بن زيد بالدخول عليه أولًا، وهشّ له وبش ورحبّ وأجلسه بجواره، ثم دخل ابنه عبد الله فسلّم عليه، ولم يفعل ما فعل مع أسامة بن زيد، وبعد ذلك أعطى أسامة بن زيد عطاءه، وهو أربعة آلاف درهم، وأعطى ابنه ألفي درهم، فتغير وجه عبد الله بن عمر لذلك الفعل، واعترض وقال: أنا أكثر حفظًا منه لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنا أحفظ لكتاب الله منه، فقال عمر: كان أبوه أحبّ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من أبيك، وكان هو أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم منك، فقدمت محبة رسول الله صلى الله عليه وسلم على محبة نفسي, فسكنت نفس ابن عمر، لأنّ أباه أخذ بميزان الرجال وهو التقوى: {إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ} (الحجرات:13).

إنّ من أراد أن يحقق التقوى فعليه أن يمسح على رأس اليتيم والمسكين، وأن يمشي مع أحد الفقراء تطييبًا لخاطره ورفعًا لمعنوياته، وذلك لكي يرفع الله من قدره في الدنيا والآخرة، وليس معنى هذا أن يترك الإنسان مجالسة الأغنياء بالكلية، لكن المهم أن يكون للفقراء نصيب منه، قال تعالى:{أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى (5) فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى (6) وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى (7) وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى (8) وَهُوَ يَخْشَى (9) فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى} (عبس:5-10).

لقد كان لابن أم مكتوم مكانةً عظيمة عند النبي صلى الله عليه وسلم، وذلك بسبب تقواه وسابقته في الإسلام، حيث استخلفه على المدينة مرتين، كما هاجر إلى المدينة منذ بيعة العقبة الأولى، حيث كان مصعب بن عمير هو الداعية، وابن أم مكتوم هو المحفظ لكتاب لله تعالى، الذي يعلم الناس القرآن، ويصلي بهم الصلوات الخمس.

وأيضًا فقد كان مؤذنًا لرسول الله صلى الله عليه وسلم، ففي الحديث: "إن بلالًا يؤذن بليل، فكلوا واشربوا حتى يؤذن ابن أم مكتوم"(1)، وبالرغم من أنه رجلٌ أعمى، لكن كان له قدرة عجيبة على ضبط الوقت، وذلك بشهادة رسول الله صلى الله عليه وسلم له. لقد أخذ الله منه نعمة البصر، وأعطاه نعمًا أخرى ومواهب عديدة، جعلته جديرًا بأن يكون خليفة على المدينة في غياب الرسول صلى الله عليه وسلم.

(1) البخاري برقم(622) ومسلم برقم(1092).

وفي معركة القادسية أصرّ عبد الله بن أم مكتوم على حضورها، بالرغم من اعتراض العديد له من الصحابة، حيث عرض عليهم أن يمسك بالراية، ولأنه لا يرى فمعنى ذلك أنه لن يفر، إذ المعركة مرتبطة نتائجها بالراية، قال: فإذا لم يكن ذلك جلست عند متاع المسلمين أحرسها لهم، فإن لم يكن كثّرت من سواد المسلمين. قال تعالى: {قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ}(آل عمران:13).

فهذا هو عبد الله بن أم مكتوم، الذي نزل بشأنه العتاب من الله سبحانه وتعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم.

الدرس الثاني: وجوب الاهتمام بالدعوة والحرص على هداية الناس:

إنّ الاهتمام بالدعوة إلى الله تعالى والحرص على هداية الناس من الأمور المطلوبة, وقد استمرّ النبي صلى الله عليه وسلم يدعوا إلى الله تعالى ثلاثا وعشرين سنة، وهذا يبرز مدى اهتمام النبي صلى الله عليه وسلم بدعوته حتى أتاه اليقين وهو الموت، دون أن يأخذ لنفسه إجازة أو عطلة حتى ليوم واحد.

لقد قام الرسول صلى الله عليه وسلم بواجب الأمانة والمسئولية الملقاة على كاهله، قال تعالى: {يَأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ}(المائدة:67)، وقال تعالى: "الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا"(المائدة:3).

إنّ على المسلم أن يحرص على الخير لنفسه ولغيره، ولذلك إن توقّعت الخير لشخص ما فإياك أن تتركه حتى يهديه الله على يديك، فإنّ قلوب الناس بين أصابع الرحمن قلب واحد يصرفه كيفما يشاء، وإذا أراد الله بعبد خيرًا هداه ولو كان في آخر رمق.

لقد كنت العام الماضي في السفارة المصرية، مع الملحق العمالي لقضاء مصلحة، فأمر أحدهم شخصًا أن يقوم بتخليص أوراقي، ودعا عليه، فلما انصرف، قلت له: لماذا دعوت عليه؟ فقال: إنه نصراني! قلت له: لا يستحق أن تدعو عليه ما دام أنه لم يفعل شيئًا، فقال لي: أنا أمزح.

ثم ذكر لي قصة ذلك النصراني، وأنه سافر إلى مصر مدة أربعة أشهر لعلاج والدته، وبعد أن أنفق عليها الكثير من الأموال، أخبره الأطباء أن أمّه لم يتبق لها إلا سويعات وستموت, فلا بد أن ينصرف بها إلى البيت لكي تموت في بيتها، وفي طريقهما إلى المحاسبة (الصندوق)، ترك أمه في مدخل المستشفى على نقالة، وذهب هو إلى المحاسبة، في هذه اللحظة دخل أحد الشيوخ فوجد هذه المرأة في النزع الأخير، فتحدث معها فوجدها ما زالت تعي وتسمع، فطلب منها أن تردد وراءه: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله، فرددت الشهادة خلفه مرارًا إلى أن توفّاها الله، فلما حضر ابنها أخبره الشيخ أن يحمد الله تعالى على أن أمّه ماتت على التوحيد، فصُدم ذلك النصراني، واتهم الشيخ أنه السبب في موت أمه على ا لكفر - من وجهة نظره- ثم رفض ابنها أن يدفنها في مقابرهم، فدفنها المسلمون في مقابر المسلمين.

وما كان هذا الامر ليحدث لولا هداية الله أولًا، ثم اهتمام هذا الشيخ بدعوته في أي زمان ومكان، اقتداءً برسولنا الكريم محمد صلى الله عليه وسلم.

الدرس الثالث: أنزلوا الناس منازلهم:

لا بد عند حديثنا مع الآخرين أن تسودنا الآداب العامة، خصوصًا إن كان بيننا من له جاهٌ وسلطان ومكانة علمية أو عمرية، وقد تعلّمنا ذلك من مخاطبة الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم بأحسن ما يكون الخطاب، فلم يقل له مرة واحدة يا محمد بل يقول له: "يأيها الرسول" "يأيها النبي"، بينما قال تعالى في مخاطبته الأنبياء "يا موسى", "يا عيسى".

لقد أمرنا الله تعالى أن نُجلّ ونحترم الأنبياء جميعًا وعلى رأسهم محمد صلى الله عليه وسلم، ومن ذلك عدم الذهاب إلا بعد استئذانه، قال تعالى: {وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ}(النور:62). وكذلك عدم تقديم الأحكام بين يديه ورفع الصوت فوق صوته عليه الصلاة والسلام، قال تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (1) يَأَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ} (الحجرات:1- 2).

إنّ الله سبحانه وتعالى قد اختار نبينا الكريم محمدًا صلى الله عليه وسلم لهذه الأمة، وجعله خاتم الرسل والأنبياء، فنزل عليه جبريل عليه السلام بالقرآن الكريم، وهو الشافع لنا يوم القيامة؛ لذا كان الواجب احترامه وإجلاله وتقديره.

لقد أراد الله سبحانه وتعالى أن يغرس هذا المعنى في نفوسنا؛ لذا حين أراد الله تعالى أن يعاتبه في سورة عبس، لم يقل: عبست وتوليت، بل قال: "عبس وتولى" وكأنّ الخطاب موجهًا إلى شخصٍ آخر، فالله تعالى يختار من الكلام أجمله وأوقعه، وكأنّه يقول لنا: إنّ محمدًا صنعته على عيني صناعةً خاصة، هذه الصناعة جعلت النبيُّ صلى الله عليه وسلم يعطي نفسه وحياته كلها لله تعالى. تقول السيدة عائشة رضي الله عنها: "كان يحدّثنا ونحدّثه، فإن قام إلى الصلاة، فكأنه لا يعرفنا ولا نعرفه"[1]، لذا لم يستحق أن يقال له: عبست وتوليت، ومن هذه الآية فإنّ الله تعالى يغرس فينا احترام الناس وإنزالهم منازلهم. قال صلى الله عليه وسلم: "ليس منا من لم يجلّ كبيرنا ويرحم صغيرنا ويعرف لعالمنا حقه"[2]، وقال: "أنزلوا الناس منازلهم"[3]، وهذا هو الذي كان يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم حين تأتيه الوفود، حيث كان يُكرمهم غاية الإكرام، ويجعل المقدم فيهم أميرًا عليهم.

فعندما جاءه وفد البحرين -وهي منطقة الإحساء في وقتنا الحالي- وعددهم أربعون راكبًا، لم يكن منهم حين وصلوا إلى المدينة واقتربوا من المسجد ورأوا الرسول صلى الله عليه وسلم إلا أن يتركوا إبلهم دون أن يعقلوها وانطلقوا إلى الرسول صلى الله عليه وسلم شوقًا إليه ومحبة له، إلا أميرهم لم يفعل ذلك، بل قام بعقل الإبل، وأحضر لها الطعام والشراب، فعل ذلك مع كل النوق وعددها أربعين ناقة، والرسول صلى الله عليه وسلم يراقبه ويرمقه بعينه، ويستحسن فعله؛ لأنه لو ترك النوق بدون عقال ربما تتفرق وتهرب،

(1) مرسل عن عائشة ذكر ذلك الحافظ العراقي في تخريج أحاديث الإحياء 205/1.

(2) حديث حسن حسنه الألباني في صحيح الجامع برقم(5443) والهيثمي في مجمع الزوائد 17/1 بلفظ(ليس من أمتي).

(3) حديث حسنه السخاوي في المقاصد الحسنة(118) والسيوطي في الجامع الصغير(2736) والعجلوني في كشف الخفاء(224/1) بلفظ: "أمرنا رسول الله أن ننزل الناس منازلهم".

وهي وسيلة المواصلات لديهم إذ بدونها لا يستطيعون العودة إلى وطنهم. وبعد أن فرغ ذلك الأمير من رعاية النوق، أحضر مخلاة فيها ثيابه، وذهب واغتسل وتطيّب وارتدى أجمل الثياب، ثم بعد ذلك جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم وصافحه وقبله. فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: "إن فيك خصلتين يحبهما الله الحلم والأناة"[1].

وبهذا التصرف استحّق هذا الرجل أن يكون هو الأمير عليهم، لأنّ أمير القوم هو الذي يقوم بشأنهم، والإمارة إنما هي قدرات ومواهب، ولهذا أنزله الرسول منزلته التي يستحقها وهي الإمارة عليهم.

إنّ علينا أن نتعلم الأدب حين نخاطب الناس، ونتعلم الانبساط معهم، وعدم إظهار التبرم أو الضيق منهم، وخصوصًا حين يتعامل الرجل مع أهل بيته، حيث يوجد من بيننا من ينبسط في الحديث مع الناس وحين يدخل إلى البيت يظهر التبرم والعبوس والضيق أمام زوجته، مع أن زوجته هي من أحق الناس بابتسامته، وفي الحديث: "تبسمك في وجه أخيك صدقة"[2].

وإننا بتعاملنا الطيب في بيوتنا نقتدي بالرسول صلى الله عليه وسلم، فعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: " كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخصف نعله، ويخيط ثوبه، ويعمل في بيته كما يعمل أحدكم في بيته"[3] .

الدرس الرابع: الغيبة محرمة ولكن هناك استثناء:

كلنّا يعلم أنّ الغيبة حرام، لأنّ الله تعالى حرمها في كتابه, قال تعالى: {وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا} (الحجرات:12). ولذلك نقول سمعنا وأطعنا، ولا ينبغي لنا أن نناقش في أحكام الله، لماذا هذا حلال وهذا حرام، بل علينا أن نتعود ألا نجادل ربنا فيما أمر أو نهى، لانّ الجدال أمره خطير.

وحين يقول الله تعالى:{يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (90) إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ (91)}(المائدة:90-91). فيجب علينا أن نقول: انتهينا، وسمعنا وأطعنا. وكذلك حين يقول لنا:{وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا (31) وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا (32) وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ}(الإسراء:31-33). فنقول أيضًا: سمعنا وأطعنا.

إنّ الواجب أن تكون حياتنا وتصرفاتنا وحركاتنا وسكناتنا خاضعة لله تعالى، دون اعتراض. قال تعالى: {وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا}(الأحزاب:36). وقال تعالى: {إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}(النور:51).

---

(1) القصة مشهورة وآخر الحديث في مسلم برقم(17).

(2) البخاري في الأدب المفرد (684) وقال الألباني صحيح ورواه الترمذي (1956)وصححه الألباني في صحيح الترمذي (1956).

(3) البخاري في الأدب المفرد(419) وصححه الألباني وكذا صححه في صحيح الجامع (4937).

أما أهل الكتاب فيقولون: سمعنا وعصينا، ونحن أمة الإسلام نقول سمعنا وأطعنا, وهذا هو الذي ربى النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه عليه، فقد روى أبو داود عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أنه قال: لما استوى رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الجمعة على المنبر قال: "اجلسوا، فسمع ذلك ابن مسعود، فجلس على باب المسجد، فرآه رسول صلى الله عليه وسلم، فقال: تعال يا عبد الله بن مسعود"[1].

لقد كانت الحاسة الإيمانية قويّة لدى الصحابة الكرام، بل صرح بعضهم فقال: أيّ أرضٍ تقلنا وأي سماءٍ تظلّنا عندما نسمع ما يقوله الله تعالى، ثم نجادل ربنا ونقول له: لماذا قلت عن هذا أنه حرام، وعن هذا أنه حلال، ذلك لأننا لا نعلم والله يعلم، فلو كان علمنا يوازي علم الله - حاشا الله أن نقول هذا - لكان لنا الحق في المعارضة, لكنّ علمنا محدود وقليل كما وصفه الله تعالى فقال: {وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا} (الإسراء:85). ثمّ حين يقول الله تعالى لنا: افعلوا أو لا تفعلوا فإنّ المصلحة تعود علينا نحن بالخير الوفير، لذا ينبغي علينا عندما نسمع بالأمر الإلهي أن نقول: سمعنا وأطعنا.

ولكي يختبر الرسول صلى الله عليه وسلم الناس في سمعهم وطاعتهم وتسليمهم الكامل لله ورسوله فقد سألهم في خطبة الوداع فقال لهم: أيها الناس: أيّ يومٍ هذا، قالوا: الله ورسوله أعلم، مع أنهم يعلمون أنه يوم النحر ويوم العيد، ولكن نسبوا العلم لله وللرسول وليس لأنفسهم؛ خشية أن يسميه الله ورسوله بغير اسمه. ثم سألهم: وأيّ شهرٍ هذا؟ كان بالإمكان أن يقولوا إنه شهر ذو الحجة، ولكن أحجموا عن ذلك وقالوا: الله ورسوله أعلم، خشية أن يسميه الله ورسوله باسمٍ آخر. ثم سألهم: وأيّ بلدٍ هذا؟ فأحجموا عن أن يجيبوا بأنه مكة؛ خشية أن يسميها الله ورسوله باسمٍ آخر.ثم قال: أليست مكة، قالوا: بلى، قال: لم لم تجيبوا؟ قالوا: خشينا أن يسميها الله ورسوله بغير اسمها. قال: إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا".

فهكذا اطمأنّ الرسول صلى الله عليه وسلم من جواب المسلمين في خطبة الوداع، حيث رأى فيهم الرضوخ والانصياع لأوامر الله تعالى دون جدالٍ فيها.

لقد حرم الله الغيبة بقوله: {وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا}(الحجرات:12))، كما نهى عنها رسول صلى الله عليه وسلم وأمر أن نكون إخوانًا، فقال: "إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث، ولا تحسسوا، ولا تجسسوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانًا"[2]. ومن نهيه عليه الصلاة والسلام عن الغيبة:

1. لما ذُكرت صفية رضي الله عنها عند عائشة رضي الله عنها، أصابت عائشة الغيرة التي تصيب النساء الضرائر، فقالت: تتحدث عن هذه وأشارت بيدها كناية على أنها قصيرة، فغضب الرسول صلى الله عليه وسلم وقال: "لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لغيرته"[3].

2. عندما مرّ رسول صلى الله عليه وسلم على صائمين، وأحدهما يعمل حجامة للآخر، وكانا يغتابان الناس، فجاء الرسول صلى الله عليه وسلم إليهما، وأمر بإناءٍ فأُحضر

(1) سنن أبي داود(1091) وصححه الألباني في صحيح أبي داود(1091).
(2) البخاري برقم(6724) ومسلم برقم(2563).
(3) رواه أبو داود في السنن رقم(4875) وصححه الألباني.

وقال لهما: قيئا، فقاءا دمًا، لأنهما أكلا أعراض الناس ولحومهم، ولذلك نزل هذا الدم، وقد قال صلى الله عليه وسلم: "أفطر الحاجم والمحجوم"[1].

إنّ الحلال حلالٌ لأنّ الله ورسوله أحلّه، وإنّ الحرام حرامٌ لأنّ الله ورسوله حرمه، وهذا هو الأصل في ديننا، ثم بعد ذلك من الممكن أن نلتمس الحكم من وراء التحليل والتحريم. فمثلًا الغيبة فيها تشهيرٌ بالناس وفضح لهم، ومن ثمّ يترتب على ذلك البغض والقطيعة، ولا شكّ أنّ القطيعة تمكّن الأعداء منّا، لأنّ من شعارهم: فرّق تسد، لذلك إن أردت أن تسود جماعة من الناس عليك أن تفرق بينهم، ثمّ بعد ذلك افعل ما تشاء، لذا قال تعالى: "وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ"(ال عمران:105).

لذلك فإنّ من الأخطار المترتبة على الغيبة:

1. أنها تؤدي إلى التشهير بالناس وبالتالي الكراهية، وبالتالي القطيعة، وبالتالي تمكّن الأعداء.

2. تضييع الطاقة، لأنّ كثرة الكلام تؤدي إلى التثاقل والخمول، والغفلة عن الصلوات، لذا علينا أن نشغل أنفسنا في ما يفيد، فالنفس إن لم تشغلها بالحق شغلتك بالباطل.

وهذه المعاني المتقدمة أخذناها من قوله تعالى: {عَبَسَ وَتَوَلَّى (1) أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى (2)}(عبس:1-2). والسؤال: كيف ينهانا الله تعالى عن الغيبة, ثم يذكرها لنا في كتابه تعالى، بوصفه عبد الله بن أم مكتوم بـــ"الأعمى"؟

والجواب: أنّ هنالك استثناءات الغيبة وهذا هو ما نصّ عليه علماؤنا فقالوا: الغيبة محرمة، إلا أنها مباحة في أمورٍ ستة، وبيانها على النحو التالي:

1. الاستفتاء: كأن يأتي رجل يسأل أحد الفقهاء عن أنّ فلانًا فعل معه كذا وكذا، ولم تكن في نيته الغيبة والتشهير، وإنما معرفة الحكم الشرعي.

لذلك عندما فتح الرسول صلى الله عليه وسلم مكة في سنة الثامنة للهجرة-أي بعد الدعوة بـ21 سنة- فقد عفا عن أهلها بقوله: "اذهبوا فأنتم الطلقاء" ثم في بيعة النساء جاءته هند بنت عتبة متنكرة، وفي هذا نزل قوله تعالى: {يَأَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ}(الممتحنة:12) ، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: "بايعنني على ألا تشركن بالله شيئًا، فقالت إحدى النساء: كانت لي صاحبة أسعدتني في الجاهلية، وكان من عادة العرب حين يموت لهم أحد الأصحاب أن تقوم النساء بمجاملة الثكلى، وذلك بشق الثياب واللطم والنواح، والسعادة هي التخفيف عما يصيب الثكلى من حزنٍ وبلاء، فتلك المرأة تسأل ماذا تفعل مع تلك المرأة التي أسعدتها في الجاهلية، لأنه في هذا اليوم قد مات ابنها، وتريد أن تسعدها كما أسعدتها، فأمرها رسول صلى الله عليه وسلم بالذهاب لكي تسعدها وتكون هذه هي المرة الأخيرة لها.

فقالت هند بنت عتبة: أعيش مع رجلٍ شحيح لا يعطيني ما يكفيني وولدي وأنا آخذ من ورائه، هل هذا يجوز أم لا يجوز؟

في هذه الحالة ذكرت زوجها بشر ووصفته بالشح؟

(1) الحديث بهذا اللفظ باطل لا أصل له كذا قال العقيلي في الضعفاء الكبير184/4.

فعلم الرسول صلى الله عليه وسلم أنها تقصد أبا سفيان، وقد علم من قبل أنها هند بنت عتبة، لأنها قالت: ربيناهم صغارًا وقتلتهم كبارًا. فقال لها النبي صلى الله عليه وسلم: "خذي مايكفيك وولدك بالمعروف". فهذا استفتاءٌ وفي هذه الحالة تجوز الغيبة.

2. التظلم: كأن يذهب أحد الناس إلى الشرطة كي يبلّغ أنّ فلانًا أخذ سيارته أو دخل بيته وطرده بالقوة، فإنّ بلاغه عن ذلك الشخص جائز، وقد قال الله تعالى: {لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا} (النساء:148). بل أنّ الساكت عن الحق المسلوب منه يكون آثمًا، لأنه يساعد السالب على أكل الحرام، وإشاعة الفوضى وعدم الأمن في المجتمع؛ لذا يتحتّم عليه الذهاب إلى الشرطة لكي يتعرض للعقوبة التي تناسب الجرم، وبهذا يرتدع أمام القاضي وأمام القانون، ويكون عبرةً لغيره.

3. النصيحة: كأن يأتي شيخٌ من مصر مثلًا إلى الكويت، ويأتي أحد الشباب يسأله عن عقيدة شخص ما، فينصحه بالانصراف عنه والاستماع إلى شيخ آخر، فإن أصرّ على معرفة السبب جاز أن يحدثّه بنية النصيحة وليس بنية التشهير والفضيحة، يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: "الدين النصيحة"[1]، وقال صلى الله عليه وسلم: "(لا خير في قوم لا يتناصحون ولا يقبلون النصيحة"[2].

4. المجاهرة بالمعصية: كأن يفعل أحد الناس المعصية على قارعة الطريق، أو يفتح أحد الناس دارًا للبغاء أو الرقص والمجون، وأنا أعلم به والناس لا يعلمون، ففي هذه الحالة ينبغي الكلام وفضح هذا الرجل وغيبته، لأنه لا ينبغي السكوت عن الفاجر، بل الأحرى الكلام عنه حتى يعرفه الناس ويحذرونه.

وقد سألني أحد الناس عن الملوك والأمراء الذين يتكلم الناس في حقهم ليل نهار هل هذا يجوز أم لا؟

فقلت: لا بد أن نفرق بين كونهم يجاهرون بالمعصية أو لا يجاهرون بها، فإن جاهروا بالمعصية فلا شيء علينا أبدًا، وإن لم يجاهروا بها -أي يعملون المعاصي في السر- فلا تجوز غيبتهم؛ فالمجاهر بالمعصية هو الذي تباح غيبته، كأن يقول: سوف أشرب الخمر رغم أنف المشايخ، أو سوف أقيم دارًا للخمر رغم أنوف الجميع.

5. التجريح لمصلحة الشريعة: ومن ذلك ما كتبه علماؤنا السابقون من جرحٍ في بعض رجال الحديث، كقولهم: فلانٌ كذاب، وفلان وضّاع، وفلان صاحب بدعة، وكتبنا مليئة بذلك، وهؤلاء العلماء يفعلون ذلك من أجل تمييز الأحاديث بعضها عن بعض، ومعرفة الراوي الثقة والمجروح وغير المجروح، وليس تشهيرًا أو فضحًا بهم. وقد سئل الإمام أحمد: ألا تخشى أن يكون هؤلاء خصماؤك يوم القيامة، قال: "لأن يكون هؤلاء خصمائي عند الله عز وجل يوم القيامة، أحب إليّ من أن يكون خصمي رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لي: لم لم تدفع الكذب عن حديثي".

6. التعريف: كأن يكون أحد الناس لا يُعرف إلا باسمٍ قبيح، أو لقب قبيح، أو كنية قبيحة، جاز ذكره بذلك، لا على سبيل التشهير والاحتقار والاستهانة، بل على سبيل التعريف. فالمسلمون يعرفون ابن أم مكتوم "بالأعمى" لذا خاطبهم الله سبحانه وتعالى بلغتهم، قال تعالى: {عَبَسَ وَتَوَلَّى (1) أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى(2)} (عبس:1-2). فلو أنهم قالوا

(1) مسلم رقم(55),وأبو داود برقم(4944)والنسائي برقم(4210) .
(2) موقوف على عمر وليس بحديث مرفوع .

عبد الله بن أم مكتوم لم يعرفه إلا القليل، أما إن قالوا: الأعمى، فكل المجتمع سوف يعرفه، لأنّه اشتهر بهذا.

وعليه فيجوز ذكر الإنسان في غيابه بالشيء القبيح، وذلك لكي يعرفه الناس فقط، وليس للتشهير والاحتقار والفضيحة والإهانة، أما إن كان للإنسان لقبان قبيحان ويعرف بأحدهما، فإن من يذكر اللقب الثاني فقد اغتابه, كأن يكون أعمى وأعرج، ويعرف بالأعمى، فمن ذكر بأنه الأعرج فهذا من الغيبة.

إنّ التشهير هو إظهار الشماتة في الشخص، وإياك أخي المسلم أن تظهر الشماتة بأخيك فيعافيه الله ويبتليك, إياك ثم إياك والشماتة فما شمت أحد الناس في أخيه إلا أصابه الله قبل أن يموت بنفس ما شمت به.

لقد كان قاضي قضاة الشافعية في بلاد الشام مصريًا، واسمه علي بن عبد الكافي المعروف بالسبكي الكبير، المتوفي سنة 756ه وكان له ابن يسمى عبد الوهاب المعروف بتاج الدين السبكي، وكان من عادة العلماء أن يحفظوا أولادهم القرآن الكريم، وحديث الرسول صلى الله عليه وسلم، وأصول الدين والقواعد الفقهية وأصول الفقه.

وبينما كان عبد الوهاب أمام بيته جالسًا، كان أحد الكلاب الضالة يريد أن يهجم عليه، فقال: إليك عني يا كلب ابن الكلب، فما كان من أبيه إلا أن انتهره وقال له: اتق الله في هذا المخلوق، فقال الابن: لم أزد عن قولي إنه كلب ابن كلب - وهو بالفعل كلب ابن كلب- فقال الأب: إنك لم تقصد التعريف به، ولكن قصدت الإهانة والتعدّي على خلقٍ من خلق الله تعالى.

هذه هي حاسة الإيمان والقيم عند المسلمين، لقد قال السبكي لابنه معلمًا: ما قلت ذلك تعريفًا، ولكن قلت ذلك تشهيرًا وشماتة واحتقارًا وإهانة.

وبينما كان عيسى عليه السلام وأصحابه يمشون، وجدوا في طريقهم كلبًا ميتًا منتفخًا ذا رائحة، فطلب منهم أن يصفوا هذا الكلب، فقال أحدهم: ما أشد سواده، وقال الآخر: لم أر أنتن ولا أقبح من تلك الرائحة التي تخرج منه، فقال سيدنا عيسى عليه السلام: ألا ما أجمل بياض أسنانه. فقالوا يا روح الله: أتقول هذا الكلام! قال: أليس هذا خلقٌ من خلق الله، فإن عبته فقد عبت الخالق سبحانه وتعالى، والله تعالى لا يخلق الخلق عبثًا، وإنما لكل مخلوق فائدة، سواء علمنا ذلك أم لم نعلم.

الدرس الخامس: تجديد الإيمان بالتأمل والتفكر في آيات الله:

من المسلّم به أنّ الإيمان يزيد وينقص، يزيد بالعمل الصالح، وينقص بالمعاصي والسيئات.

وقد أنعم علينا بنعم كثيرة، هذه النعم تزيد من إيماننا بالله تعالى، قال تعالى:{وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌc (النحل:18). ومن نعم الله تعالى أن خلق الله لنا عينين، فحين يسأل الإنسان عن هذه النعمة فإنه يقول بأن صاحبها هو الله تعالى.

إنّ نعمة العين تحمل في طياتها نعمًا كثيرة، فهناك شق العين، وهناك الرموش، وهناك الحواجب، وأيضًا تركيب العين من بياض وسواد، وغير ذلك، وهناك من خلقه الله أكمه أي ممسوح العين، لا شق ولا بياض ولا سواد، ويسمى الأكمه، وممن اشتهر في التاريخ بذلك هو أبو عيسى الترمذي رحمه الله تعالى.

لقد أمرنا الله بالنظر والتفكر في نعمه العظيمة، فقال تعالى: {وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ} الذاريات:21. وقال تعالى: {مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ}(عبس:19). خلقه من ماء مهين، فأخرج منه بشرًا سويًا له يدان ورجلان وعينان؛ في تناسقٍ عجيب وخلقٍ عجيب، فلا يمشي على أربع، وليست عينه في قفاه. إنّ الأحرى لهذا المخلوق أن يشكر نعم الله التي أصبغها عليه، وليس أن يتنكر نعم الله العديدة عليه. يقول تعالى:{قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ (17) مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ (18) مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ (19) ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ (20) ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ (21) ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ (22) كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ (23)}(عبس:17-23). لقد كان هذا المخلوق الضعيف نطفة في بطن أمه، ثم كبر وترعرع في حجرة مظلمة، ثم خرج من شقٍ ضيق، لم يختنق في بطن أمه، ولا في أثناء خروجه، ثم علّمه ربه طريق الخير وطريق الشّر: قال تعالى:{ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ} عبس: 20) وقال تعالى: {وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ (10)}(البلد:10). وبعد ذلك يعود الإنسان إلى ربه، ويفارق هذه الدنيا، وهناك جزء في الإنسان لا يموت أبدًا، اسمه العصعص أو عجب الذنب. وإن العودة إلى الحياة بعد الموت يسيرةٌ على الله تعالى، لأنّ الذي أنشأ الإنسان في البداية قادر على الإعادة، وكل ذلك بكلمة "كن فيكون".

إنّ التأمّل والتدبّر في مخلوقات الله تعالى تزيد في الإيمان، وإنّ جميع النعم هي من الله تعالى، وكل الخلق عالة على الله، وهو الغني سبحانه، وهذا كله يجعلني أقترب إلى الله تعالى وأؤدي حقه. وقد قال تعالى: {فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ (24) أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (25) ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا (26) فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (27) وَعِنَبًا وَقَضْبًا (28) وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا (29) وَحَدَائِقَ غُلْبًا (30) وَفَاكِهَةً وَأَبًّا (31) مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ}(عبس:24-32).

فحين أقرأ القرآن، أو أسبح الله، أو أصوم أو أحج كل ذلك يزيد في الإيمان، وأيضًا فإنّ التفكر في الصلاة يزيد في الإيمان، لذلك لا ينبغي للرجل أن يستعجل في صلاته دون تدبر وخشوع وتفكر، قال صلى الله عليه وسلم: "أسوأ الناس سرقة الذي يسرق من صلاته، لا يتم ركوعها ولا سجودها، ولا خشوعها"[1] وإنما ينقرها نقر الديكة.

ولقد دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم المسجد، ثم دخل رجل فصلى، ثم جاء فسلّم على النبي صلى الله عليه وسلم فرد عليه، وقال: "ارجع فصل، فإنّك لم تصل، فرجع يصلي كما صلّى، ثم جاء فسلم على النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: ارجع فصل فإنك لم تصل. ثلاثا، فقال: والذي بعثك بالحق، ما أحسن غيره، فعلمني؟ فقال: إذا قمت إلى الصلاة فكبر، ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن، ثم اركع حتى تطمئن راكعًا، ثم ارفع حتى تعتدل قائمًا، ثم اسجد حتى تطمئن ساجدًا، ثم ارفع حتى تطمئن جالسًا، ثم افعل ذلك في صلاتك كلها"[2].

وأيضًا فإنّ صناعة المعروف تزيد الإيمان، كالإنفاق على اليتيم والأرامل والفقراء والمساكين، وقد قال صلى الله عليه وسلم: "من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته"[3].

---

(1) صحيح .انظر صحيح الجامع حديث رقم(986), الترغيب والترهيب 245/1.
(2) البخاري رقم(757),ومسلم رقم(397).
(3) مسلم برقم(2580).

وكذلك صحبة الطيبين تزيد في الإيمان، ويكون ذلك بالتذكرة المتبادلة بطاعة الله، وقد قال صلى الله عليه وسلم: "خياركم من ذكركم بالله رؤيته، وزاد في عملكم منطقه، ورغّبكم في الآخرة عمله"[1].

ومما يزيد في الإيمان أيضًا هو كثرة ذكر الله تعالى، وقد قال صلى الله عليه وسلم: "إن الإيمان ليخلق في جوف أحدكم كما يخلق الثوب، فاسألوا الله تعالى: أن يجدد الإيمان في قلوبكم"[2]. وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: ناد في الناس من قال: لا إله إلا الله دخل الجنة"[3].

وكذلك كثرة تلاوة القرآن، قال تعالى: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا}(الأنفال:2). وقال سبحانه:{اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ}(الزمر:23).

وأيضًا حضور مجالس العلم: حيث تدعو الملائكة لحاضر جلسة العلم وتقول: اللهم اغفر لهم اللهم ارحمهم. كما أنّ الرب سبحانه وتعالى يباهي بنا في الملأ الأعلى، يقول لملائكته: انظروا إلى عبادي لم تشغلهم الدنيا بحضور المجالس التي يُذكر فيها اسمي.

ومما يزيد الايمان مشاهدة أحوال الموتى والمرضى، كالذهاب إلى المستشفيات، فحين ترى المرضى، تقول الحمد الله على كل حال، الحمد الذي عافانا مما ابتلى به كثير من خلقه.

وكذلك تشييع الجنائز، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "قد كنت نهيتكم عن زيارة القبور فقد أذن لمحمد في زيارة قبر أمه فزوروها فإنها تذكر الآخرة"[4].

الدرس السادس: كل إنسان يوم القيامة مسئول عن نفسه، ولا تنفع نفس نفسًا.

إنّ الأب لا ينفع ابنه يوم القيامة، ولا الأم تنفع ولدها، ولا الزوج ينفع زوجته ولا الزوجة تنفع زوجها، قال تعالى: {لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ}(عبس:37). وقد شرح النبي صلى الله عليه وسلم قوله تعالى:{يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (34) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (35) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ (36) لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ" (37)} (عبس:34-37). بأنه يؤتى بالعبد يوم القيامة، ثم توزن حسناته وسيئاته، فتزيد سيئاته على حسناته بواحدة، فهو في حاجة إلى حسنةٍ لكي يدخل الجنة، فلا يجد من يعطيه تلك الحسنة، حتى أنّ الأم التي حملت ابنها وهنًا على وهن، وفصاله في عامين، وكانت منبع الحنان والعطف في الدنيا، تبخل على ابنها بحسنةٍ واحدة، وتقول: نفسي نفسي.

(1) السيوطي في الجامع الصغير برقم(3975)وصححه,وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة برقم(2830)وكذا في ضعيف الجامع برقم(2874).

(2) صحيح, صححه الألباني انظر صحيح الجامع برقم(1590) و السلسلة الصحيحة رقم(1585).

(3) إسناده صحيح انظر السلسلة الصحيحة3(127/).

(4) صحيح انظر الترغيب والترهيب للمنذري 273/4 ,وصححه الألباني في صحيح الترغيب رقم(3544) وفي صحيح الجامع رقم(4379).

إنّ كلّ إنسان مشغول يوم القيامة بنفسه دون غيرها، قال تعالى: {وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ}(البقرة:48). وقال تعالى: {يَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ} (لقمان:33).

لذلك لا بد أن أوقن جيدًا أنه لن يوجد أحد يقرضني يوم القيامة، فينبغي أن لا أفوّت فرصة الحياة مطلقًا، وأن أنهل من أبواب الخير المفتوحة أمامي، وقد كان الصحابة رضي الله عنهم من أشد الناس حرصًا على اغتنام مواطن الحسنات وأعمال الصالحات، ففي أحد الأيام قال صلى الله عليه وسلم لأصحابه: "أيكم أصبح اليوم صائمًا؟ فقال أبو بكر: أنا، ثم قال: وأيكم عاد اليوم مريضًا؟ فقال أبو بكر: أنا، ثم قال: وأيكم أطعم اليوم مسكينًا؟ فسكت الصحابة جميعًا، وقال أبو بكر: أنا، ثم قال: وأيكم تبع اليوم جنازة؟ فسكت الصحابة، فقال أبو بكر: أنا، فقال صلى الله عليه وسلم: "ما اجتمعن في امرئ إلا أدخله الله الجنة"[1].

وأيضًا فإنّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه وجد عجوزًا عمياء مقعدة في بعض نواحي المدينة، فقال عمر في نفسه: وجبت عليَّ خدمتها، فكان يقم بيتها، ويعجن عجينها، ويحضر لها الماء، وفي أحد الأيام دخل فوجد كلّ شيء في مكانه، فأيقن أنّ هناك من سبقه لخدمة تلك العجوز، الماء موجود، والخبز موجود، والبيت نظيف، والثياب نظيفة، فعزم على معرفة من الذي سبقه في خدمة تلك المرأة، فكمن أمام البيت ترقبًا لذلك، فإذا به يرى أبا بكر الصديق داخلًا، فقال في نفسه عن أبي بكر: ما نافستك في شيء إلا سبقتني إليه، والله لا أعود إلى منافستك أبدًا.

إنّ الحسنة الواحدة لها شأن عظيم، لذا فقد حرص الصديق رضي الله عنه عليها، حيث طرق كل الأبواب التي تكسبه الحسنات. وقد قال المولى الكريم سبحانه وتعالى: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا}(النساء:40). وقال تعالى: {وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ}(الأنبياء:47).

وعليه فلا ينبغي للمسلم أن يستهين بأيّ عمل صالح ولو كان قليلًا، فقد أخبرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: " بينما رجل بطريق، اشتد عليه العطش، فوجد بئرًا فنزل فيها، فشرب ثم خرج، فإذا كلبٌ يلهث، يأكل الثرى من العطش، فقال الرجل: لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان بلغ مني، فنزل البئر فملأ خفه ماء، فسقى الكلب، فشكر الله له فغفر له. قالوا: يا رسول الله، وإنّ لنا في البهائم لأجرًا؟ فقال: في كل ذات كبد رطبة أجرا"[2]. وقال صلى الله عليه وسلم: "بينما رجل يمشي بطريق، وجد غصن شوك على الطريق، فأخَّره. فشكر الله له. فغفر له"[3].

فهذا الرجل أدخله الله الجنة في غصن شوك أزاحه عن طريق الناس، لذا لا ينبغي أن لا نستهين بفعل الخير مهما صغر.

(1) مسلم حديث رقم(1028).
(2) البخاري برقم(2466) ومسلم برقم (2244).
(3) البخاري برقم (2472) ومسلم برقم (1914).

وأيضًا: "كان كان تاجر يداين الناس، فإذا رأى معسرًا قال لفتيانه: تجاوزوا عنه، لعلّ الله يتجاوز عنا فتجاوز الله عنه"[1]. فهذا الرجل دخل الجنة بسبب عمل واحد هو تجاوزه عن عباد الله المعسرين.

لذلك أقول: لا تستهن أيها المسلم بطاعةٍ من الطاعات، أو بذنبٍ من الذنوب. فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "عذِّبت امرأة في هرةٍ سجنتها حتى ماتت. فدخلت فيها النار. لا هي أطعمتها وسقتها، إذ هي حبستها. ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض"[2].

فاحذر أيها المسلم أن تستهين بمعصية من المعاصي فربما تكون المعصية سببًا في الغضب، ولا تستهن بطاعة من الطاعات لربما تكون سببًا في الرضا. جاء في الحديث: "إنّ العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله، لا يلقي لها بالًا، يرفعه الله بها درجات، وإنّ العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقي لها بالًا، يهوي بها في جهنم"[3]. أو كما قال صلى الله عليه وسلم.

إنّ على كل شخصٍ منا أن يجهّز نفسه من الآن، فليست هناك محسوبية ولا شفاعة إلا بإذن من الله سبحانه وتعالى، فأقرب المقربين وهي الأم تقول: نفسي نفسي، قال تعالى: {يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (34) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (35) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ (36) لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (37)}(عبس:34-37).

الدرس السابع: تجنّب الفضيحة يوم القيامة:

إنّ كل من يجاهر بالمعصية فإنه سيفضح يوم القيامة، وقد أخبرنا الله في كتابه أنّ الكفار يوم القيامة تعلو وجوههم الغبرة والكآبة وسوء المنظر، وانّ الناس ستعرفهم بهذه العلامات، وهذا بسبب سوء أعمالهم ومعصيتهم في الدنيا. وفي المقابل توجد يوم القيامة وجوه مشرقة، والكل يحب أن ينظر إليهم لحسن وجوههم، قال تعالى: {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ (38) ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ (39) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ (40) تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ (41) أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ (42)}(عبس:38-42).

من أين تأتي الفضيحة؟

إنّ الإنسان هو السبب في صنع "الغبرة" أو "السفرة" وليس الله تعالى، فأنت من تتخذ القرار، فإن عملت الصالحات والطيبات ستكون ضمن من قال الله فيهم: {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ (38) ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ (39)"(عبس:38-39). وإن أنت استهنت بأحكام الله تعالى، ولم تعمل الطاعات وتبتعد عن السيئات، فستكون ضمن من قال الله فيهم: "وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ (40) تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ (41) أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ (42)}(عبس:40-42).

إننا الآن قد نعمل السواد لوجوهنا يوم القيامة أو نعمل البياض كذلك، فإن رضخنا لحكم الله وعملنا الحسنات فإننا نبيّض وجوهنا يوم القيامة، وإن عصينا وتمردنا عن حكم

(1) البخاري برقم(6169) ومسلم برقم(2640).
(2) البخاري برقم (3482) ومسلم برقم(2242).
(3) البخاري برقم(6478).

الله فسنكون السبب في سواد وجوهنا. وقد أخبرنا الله في كتابه أنّ وجوه الكفار سوداء، فقال تعالى: {وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْمُتَكَبِّرِينَ} (الزمر:60). وقال عزّ وجل: {يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ} (أل عمران:106).

وإنّ ممن يفضحهم الله يوم القيامة هو من يأمر الناس بالمعروف ولا يأتيه وينهاهم عن المنكر ويأتيه، ففي الحديث أنه قيل لأسامة: لو أتيت فلانًا فكلمته، قال: إنكم لترون أني لا أكلمه إلا أسمعكم، إني أكلمه في السر، دون أن أفتح بابًا لا أكون من فتحه، ولا أقول لرجلٍ إن كان عليّ أميرا: إنه خير الناس، بعد شيءٍ سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم، قالوا: وما سمعته يقول: قال: سمعته يقول: يجاء بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار، فتندلق أقتابه في النار، فيدور كما يدور الحمار برحاه، فيجتمع أهل النار عليه فيقولون: أي فلانًا ما شأنك؟ أليس كنت تأمرننا بالمعروف وتنهانا عن المنكر؟ قال: كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه، وأنهاكم عن المنكر وآتيه "[1]. فهذا يفضحه الله يوم القيامة, لأنه لم يكن صادقًا مع الله تعالى.

والحمد لله رب العالمين

(1) البخاري برقم(3267) ومسلم برقم(2989).

الدروس والعبر من سورة التكوير

سورة التكوير هي السورة الرابعة في جزء الثلاثين، وفيها دروسٌ وعبر عظيمة، وبيانها على النحو التالي:

الدرس الأول: الانتباه واليقظة تحسبًا ليوم القيامة:

قال تعالى: {إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ (1) وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ (2) وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ (3) وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ (4) وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ (5) وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ (6) وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ (7) وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ (8) بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ (9) وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ (10) وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ (11) وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ (12) وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ (13) عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ (14)}(التكوير:1-14).

إنّ هنالك أمورًا غيبية أطلع الله عليها من شاء من خلقه، وهنالك أمورٌ أخرى استأثر بها الله تعالى ولم يطلع عليها أحدًا من خلقه، وهي خمسة أمور من ضمنها موعد الساعة، قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} (لقمان:34).

وعليه فما دام علم الساعة عند الله سبحانه وتعالى، فإنّ السؤال عن الساعة والبحث في موعدها تضييع للأوقات والجهود، قال تعالى: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} (الأعراف:187). وقال سبحانه: {يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا}(الأحزاب:63). وحين سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن الساعة فقال: "ما المسئول عنها بأعلم من السائل"[1] .

ومن رحمة الله تعالى بعباده، أن جعل علامات تدل على أنّ الساعة على الأبواب، لذلك لو انتبهنا إلى الحوادث والوقائع الدالة على الساعة وأخذناها بعين الاعتبار، فإنه يحتم علينا أن ننشط لأعمال الخير أكثر.

وقد فطن الصحابة الكرام لهذا المعنى فأكثروا في عمل الطاعات، حيث كان أبو موسى الأشعري رضي الله عنه في آخر حياته كثير الصلاة، كثير الصيام، كثير الصدقات، كثير تلاوة القرآن، كثير الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، وحين سئل ما هذا؟ قال: هل رأيتم الخيل في السباق؟ فالخيل تمشي في البداية الهوينا، حتى إذا كانت قريبة من الهدف أو الغرض نخسها صاحبها نخسة فإذا بها تطير لتسبق غيرها، لذا فأنا أريد أن ألقى ربي في أحسن أحوالي في الإقبال على الله عز وجل.

وأيضًا كان ابن مسعود رضي الله تعالى عنه له درس كل يوم خميس، وكان جسمه نحيفًا، وكان الصيام يؤثّر عليه، فكان يجد المشقة في أن يجمع بين الصوم والتدريس لطلاّب العلم، لتعدد الأماكن التي يُدَرّس فيها، لذا كان كان يؤثر تعليم الناس على صوم التطوع، وهذا من فقه الموازنات. وفي آخر حياته مرض مرضًا شديدًا، حجبه عن أداء الدرس لطلابه، وحجبه عن قيام الليل، وتلاوة القرآن، فكان يبكي ويقول: وددت لو أني لقيت ربي على حالي الأولى وليس على هذه الحال.

(1) البخاري رقم(50), مسلم برقم(8).

ومن كرم الله ولطفه أنّ الإنسان إذا مرض ثم أعاقه المرض عن عمله السابق، فإنه يحصل على أجر ما كان يعمله صحيحًا، لقول النبي صلى الله عليه وسلم: "إنّ العبد إذا مرض أو سافر كتب له من العمل ما كان يعمله صحيحًا مقيمًا"[1]. وقد قال صلى الله عليه وسلم أيضًا للذين كانوا معه في أرض الشام في غزوة تبوك، عن الذين تخلفوا عن الغزوة بسبب الفقر أو المرض: "إن بالمدينة لرجال ما سرتم مسيرًا ولا قطعتم واديًا إلا كانوا معكم شركاء في الأجر، حبسهم العذر أو حبسهم المرض"[2] أو كما قال صلى الله عليه وسلم.

أؤكد فأقول: إن الساعة غيب ولكن الوقائع التي تقع قبلها لا بد أن تؤخذ بعين الاعتبار, لكي يجدّ الناس في العمل، فيتوب العاصي، ويزداد التائب إقبالًا على الله عز وجل، فتتغير حال الإنسان من سيءٍ إلى حسن، ومن حسنٍ إلى أحسن.

لذا ذكر لنا الله سبحانه وتعالى في بداية السورة شيئًا من ذلك، حيث قال: {إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ (1) وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ (2) وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ (3) وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ (4) وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ (5)}.

فتكوير الشمس، وطمس النجوم، وتسيير الجبال، هذه العلامات إنما تكون بعد النفخة الثانية، وقيام الناس من قبورهم. وقوله سبحانه: {وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ (4) وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ (5) وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ (6)} فهذه العلامات تكون قبل النفخة الأولى. وأما قوله تعالى: {وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ} فهذه تحدث عند الخروج من القبر، حيث تتزاوج النفوس كل شخص مع قرينه ومن على شاكلته، فالمشركون مع بعض، والملحدون مع بعض، والربويون مع بعض، والكذابون وسفاكو الدماء والمجرمون وغيرهم، قال تعالى: {احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (22) مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ (23) وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ (24)} (الصافات:22-24). ومعنى أزواجهم: أي من على شاكلتهم. وقال تعالى: {وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً (7) فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ (8) وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ (9) وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ (10)} (الواقعة:7-10).

كما انّ هنالك أمورًا ستكون بين يدي الله تعالى، يقول المولى عزّ وجل: {وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ (8) بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ (9) وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ (10) وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ (11) وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ (12)} والكشط: يعني تشقق السماء ونزول الملائكة.

إنّ هذه الأشياء التي ذكرها الله تعالى في سورة التكوير ليست مرتبة ترتيبًا زمنيًا، لكن هذه الحوادث جميعًا سوف تقع؛ لذلك لا بد أن تكون أذني صاغية، وعيني مفتوحة، وعقلي يعمل، أتعقل ما أسمع وما يدور حولي، هل هذه العلامات هي المقدمة الأولى، أم المقدمة الثانية، أم المقدمة الثالثة، أم المقدمة الرابعة.

إنها دعوةٌ إلى اليقظة والانتباه، وإنّ عدم الترتيب هو لفتة للانتباه واليقظة والحذر، بحيث تكون هذه الأمور أمام ناظريك عند نومك وأكلك وجميع شأنك. قال تعالى: {اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ (1) مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا

(1) البخاري رقم (2996).
(2) البخاري رقم(2839) ورقم(4423),مسلم برقم(1911).

اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ (2) لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ}(الانبياء:1-2)، وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: "الناس نيامٌ، فإذا ماتوا انتبهوا".

وعلى سبيل المثال فإنّ سائق السيارة لا بدّ أن يكون منتبهًا ومتيقظًا، لكي يتفادى الحوادث، أو خوفًا من أن تنحرف السيارة، ثم في نهاية طريقه يشعر بالجهد والإرهاق بسبب توتّر أعصابه المستمر، ويصف رحلته في الطريق بالصعوبة، مع أنّ رحلة الدنيا أصعب، لذلك كان ينبغي للإنسان أن يكون على استعدادٍ ويقظة تامة لكي تمر رحلته بسلام.

لا بدّ أن تكون الأعين مفتوحة، والأذان صاغية، والقلوب واعية، والعقول صافية، والنفس والهمة مجموعة حول قضية واحدة وهدفٍ واحد، قال صلى الله عليه وسلم: "من كانت الآخرة همّه، جعل الله غناه في قلبه، وجمع له شمله"[1].

فمثلًا: الشخص الذي يأتي للعمل في الخليج، هل ينشغل بأن يبني بيتًا في الخليج، أم بأن يبني بيتًا في بلده؟ وهكذا المسافر للآخرة، وهذا ما فطن إليه مؤمن آل فرعون، حيث قال: {يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآَخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ}(غافر:39). وفي الحديث أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: "ما لي وللدنيا، ومال الدنيا ولي، ما أنا إلاّ كراكبٍ في يوم قائظ اشتدّ بي الحر، فنزل فاستظل بظل شجرةٍ ساعة من النهار، ثم تركها وراح"[2] أو كما قال عليه الصلاة والسلام.

والسؤال: كيف أكون في كل أحوالي منتبهًا يقظًا؟

والجواب: هو أني إذا قرأت القرآن أنسى كل أمور الدنيا وأنتبه لما تقرأ، وإذا صليت أنسى كل أمور الدنيا، وإذا ذكرت الله أنسى كل ما يتعلق بالدنيا، وإذا كنت في وظيفة أنسى كل شيء وأتقن الوظيفة؛ وغاية الأمر أن يجعل الإنسان كل همّه في العمل الذي هو فيه، وهمّنا الأكبر في النهاية أن نظفر بالنجاة يوم لقاء الله سبحانه وتعالى، وفي الحديث: "من أصبح وهمه الآخرة جمع الله عليه وشمله، وجعل غناه في قلبه وأتته الدنيا وهي راغمة"[3]. أفاد هذا الحديث: أنّ الدنيا تجري خلف من يطيع ربه تعالى، وتعمل خادمة له، كونها مأمورة من قبل ربها، وأنّ من يترفع عنها طاعة لله، لا تكون لها سلطان عليه، ولا تستطيع أن تستعبده.

لقد ابتدأت سورة التكوير بذكر علامات القيامة، وأيضًا قد أخبرنا الرسول صلى الله عليه وسلم أنّ هناك حوادث وعلامات صغيرة، وأخرى كبيرة، كمقدمةٍ ليوم القيامة؛ فالحوادث الصغيرة قد وقعت منها أمور ومازالت تقع، أما الحوادث الكبيرة فلم تقع بعد.

ومن أمثلة الحوادث الصغيرة:

1. عقوق الآباء.
2. أن تلد الأَمَة ربّتها- وهذا ما يحدث في عصرنا هذا- فالولد يعامل والديه كأنه هو الأب وهم الأولاد، فلا يستحي الولد أن يضع رجلًا على رجل أمام والديه ويأمرهم وينهاهم.

---

(1) صحيح صححه الألباني في صحيح الجامع(6561) ,صحيح الترغيب(3169),صحيح الترمذي(4265).
(2) الترمذي برقم(2377) وقال: حسن صحيح,واحمد في المسند 264/5 قال أحمد شاكر: إسناده صحيح.
(3) سبق تخريجه.

3. تضييع الأمانات. قال صلى الله عليه وسلم: "إذا وسِّد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة"[1].

4. انتشار شرب الخمر: حيث أصبح بعض الناس يشربون الخمر على قارعة الطريق.

5. انتشار الزنى: حيث أصبح الزنى مقننًا ومرخصًا، له قوانين وتشريعات.

6. انتشار اللواط والشذوذ: حيث أصبح للشواذ قوانين خاصة في الدساتير تحمي وحرياتهم.

7. عدم البركة في الوقت: بحيث تكون السنة كالشهر، والشهر كالجمعة، والجمعة كاليوم، واليوم كالساعة. وقد كان علماؤنا السابقون يشكون من عدم البركة في الوقت، فالإمام ابن حجر العسقلاني مات في القرن التاسع الهجري وتحديدًا سنة 852هـ، ومع ذلك كان يشتكي من عدم البركة في الوقت، حيث قال: وإننا نشتكي إلى الله من عدم البركة في الأوقات، مع أنّ الواحد منا لو حاول أن يقرأ كتبه ومؤلفاته فقط دون فهم أو وعي لما استطاع ذلك. فكيف بزماننا! لقد أوشكنا أن نعيش هذه الأيام الخالية من البركة.

8. نزع البركة من الأرزاق: حيث أنّ هناك من الناس من يملك الأموال الطائلة، لكن لا يستفيد منها، بالإضافة إلى أنه أصاب الناس داء الشح والبخل، وهو ما حذّر منه النبي عليه الصلاة والسلام فقال: "إياكم والشح فإنما هلك من كان قبلكم بالشح أمرهم بالبخل فبخلوا وأمرهم بالقطيعة فقطعوا وأمرهم بالفجور ففجروا" [2]. فالشح قضية خطيرة جدًا.

9. انتشار الجهل: وهذا واقعٌ وملموسٌ في حياتنا وتعاملاتنا اليومية.

فكل هذه علامات وقعت ومازالت تقع.

أما العلامات الكبرى فلا بد من الانتباه لها والاستيقاظ لها، لأنه إن وقعت فلا سبيل إلى الرجوع والتوبة، قال صلى الله عليه وسلم: "لا تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات: الدجال، وعيسى ابن مريم، ويأجوج ومأجوج، وثلاثة خسوف: خسف بأرض المشرق، وخسف بأرض المغرب، وخسف بأرض العرب - زلزال لم تعرف له الدنيا نظيرًا أبدًا- وطلوع الشمس من مغربها، والدابة - تختم على وجوه الناس مؤمن وكافر- والدخان - يصيب المؤمن بالزكام أو الانفلونزا ويصيب الكفار بمرض سرطان في الجلد، ولا يجد لذلك علاجًا أبدًا- ونارٌ تخرج من أرض عدن تسوق الناس إلى أرض المحشر -تبيت معهم حيث باتوا، وتصبح معهم حيث يصبحوا، وتمسي معهم حيث أمسوا وتضحي معهم حيث أضحوا حتى تجرهم إلى أرض الشام"[3].

ومن المناسب ذكره أنّ عدد علامات القيامة الصغرى مائة علامة، وانّ عدد علاماتها الكبرى عشر علامات، لذلك إذا انتبهنا وتيقظنا بسبب وقوع العلامات الصغرى 70%، كان الأحرى أن ننتبه ونتيقظ للعلامات الكبرى بنسبة 100%، لأنها إن وقعت تضاءلت الفرصة في التوبة والرجوع إلى الله تعالى.

(1) البخاري برقم(59).
(2) صحيح صححه الألباني في صحيح أبي داود رقم(1698).
(3) رواه أبو داود رقم(4311) والترمذي برقم(2318)وابن ماجة برقم(3294)وصححه الألباني.

وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "والذي نفس محمد بيده ليوشكنّ أن ينزل فيكم عيسى ابن مريم حكمًا مقسطًا عدلًا، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويريق الخمر، ويضع الجزية، ويفيض المال حتى لا يوجد من يأخذه"[1]. لذا كان يقول صلى الله عليه وسلم: "تصدقوا حتى لا يأتي اليوم الذي يخرج فيه أحدكم بصدقته فلا يجد من يقبلها"[2].

إنّ تعطيل العشار: يحدث بعد طلوع الشمس من مغربها، حيث تظهر الدابة والدخان، وفي هذه الحالة كل المخلوقات تبكي، حتى أنّ صاحب النوق، التي جاء أوان عشارها لكي تنتج نوقًا أخرى، ينشغل عنها ولا يقوم بتلقيحها، ولسان حاله يقول: وماذا أفعل بالمال، والقيامة على الأبواب، فلم يعد للمال وزن ولا قيمة.

وقوله تعالى: {وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ}: يحدث بعد النفخة الثانية حيث يحشر الجميع بما فيهم الوحوش والدواب، أو حين تخرج النار من أرض عدن، فتجري كل المخلوقات هربًا من النار التي لا تتوقف، ومن ضمنها الدواب بمختلف أشكالها وأنواعها تحشر وتجري من تلك النار.

إنّ العلامات الكبرى للقيامة تأتي متتابعة، فإذا وقعت الأولى تتابعت الأخريات، كما انّ العقد إذا خرجت منه الحبة الأولى تتابعت الحبات في السقوط.

فالدّجال يمكث معنا أربعين يومًا: يومٌ كسَنة، ويوم كشهر، ويوم كجمعة، وباقي الأيام كأيامنا هذه، والدجال فتنة عظيمة، لأنه يأتي في البداية على أنه رجل صالح، فيتبعه الناس على ذلك، ثم فجأة يدّعي النبوة، ثم بعد ذلك يدّعي الربوبية والألوهية، فيقول للناس: أنا ربكم، ومعي جنة ومعي نار، ويزعم أنه يري الناس آيات الخالق، فيأمر السماء بأن تمطر، فتمطر، ويأمر الأرض أن تخرج كنوزها فتخرجها، وهذا عملٌ من أعمال الله. ثم يأتي بولدٍ فيضربه بالسيف فيقسمه قسمين، ثم يأمره بالعودة فيعود كما كان إلى الحياة مرة أخرى.

كما أنّ الدجال أعور، ومع ذلك يزعم أنه الله، والله تعالى ليس بأعور، وإنّ المؤمنين سيعرفون أنه الدجال حيث يطلبون منه أن يفعل ذلك مرة أخرى، فيعجز عن يميت شخصًا ثم يحييه، فيتبين كذبه وبهتانه.

لذا لا بدّ من معرفة أوصاف الدجال، وقد حرص النبي صلى الله عليه وسلم على تعليمها أصحابه، وقد كانوا يدعون الله تعالى ألا يقابلوا الدجال، خشية أن تصيبهم فتنته، إذ من الممكن أن ينهار الشخص أمامه حين يقول له: أنا ربك، وهذه جنتي، وهذه ناري. فالذين سبقت عليهم الشقوة يقولون: أنت ربنا، فيلقيهم في جنته فتكون نارهم، والذين كتب الله السعادة، يكذبونه فيدخلهم ناره وهي في الحقيقة جنتهم.

لقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر من قوله: "اللهم إني أعوذ بك من عذاب جهنم، ومن عذاب القبر، ومن فتنة المسيح الدجال، ومن فتنة المحيا والممات"[3]. وقال صلى الله عليه وسلم: "لا يتمنين أحدكم الموت لضرٍ نزل به، وإن كان لا محالة فليقل:

(1) مسلم برقم(155)وابن ماجة برقم(3312) وصححه الألباني في صحيح ابن ماجة.
(2) البخاري برقم(1311)ومسلم برقم(1011).
(3) البخاري برقم(1377) ومسلم برقم)(588).

اللهم أحيني ما كانت الحياة خيرًا لي، وتوفني ما كانت الوفاة خيرًا لي، وإذا أردت بقوم فتنةً فتوفني غير مخزي ولا مفتون"[1] أو كما قال صلى الله عليه وسلم.

كما أنه عليه الصلاة والسلام قد علّم أمته ما يقيهم من الدجال فقال صلى الله عليه وسلم: "من حفظ عشر آياتٍ من أوّل سورة الكهف عصم من الدّجّال"[2].

والسؤال: لماذا سورة الكهف بالتحديد؟

والجواب: لأنّ فيها الفتية الذين خرجوا هربًا بدينهم، واحتموا بذلك الكهف خوفًا من قومهم، فحماهم الله وحفظهم، وكأننا نقول إن التوحيد هو حماية المؤمنين، قال تعالى: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا (1) قَيِّمًا لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا (2) مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا (3) وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا (4) مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا (5)}(الكهف:1-5).

لذا أمرنا الرسول صلى الله عليه وسلم أن نقرأ سورة الكهف يوم الجمعة أو ليلة الجمعة، وينبغي أن تكون القراءة عن وعيٍ وفهم، بحيث نستمسك بالتوحيد والإخلاص وإتباع السنة بحيث إذا داهمنا الدجال كنّا على علمٍ بطريق الوقاية والمقاومة. ثم نعزم العزم الأكيد أن نكون من جيش سيدنا عيسى ابن مريم عليه السلام، الذي سوف يقوم بتخليص الأرض من هذا الدجال، وقد أخبرنا النبي صلى الله عليه وسلم أنه حين ينزل عيسى عليه السلام من السماء تكون قد حضرت الصلاة، فيقدمه المهدي ليؤم الناس، فيتأخر عيسى ويطلب من المهدي أن يؤم الناس، وهذا فيه كناية على أنه تابع لدين محمد صلى الله عليه وسلم ولم يأت بدين أو شريعة جديدة، بل يجيء مصدقًا لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم.

وما إن يتواجه عيسى ابن مريم عليه السلام مع المسيح الدجال، حتى يذوب الدجال كما يذوب الملح، فيطارده عيسى عليه السلام فيدركه عند "باب لد" فيضربه ضربة تقطعه قطعتين، وتنتهي قصة الدجال ومن وراءه من اليهود والنصارى. إنّ النصارى واليهود ينتظرون الدجال مع أنه سيكون نكبة وخراب عليهم، كما يظنون أن مجيء عيسى عليه السلام رحمة بهم، إلا أنه مجيئه عليه السلام سيكون لإقامة الحجة على الكافرين منهم.

ويوجد كتاب في الأسواق أنصح كل بيت باقتنائه فيه تفصيل لقصة عيسى عليه السلام مع الدجال واسمه: "التصريح بما تواتر في نزول المسيح" للشيخ محمد أنور شاه ـ كشميري.

ومن علامات الساعة أيضًا: بعثة محمد صلى الله عليه وسلم، فقد قال: "بعثت أنا والساعة كهاتين وأشار بالسبابة والوسطى"[3].

لذا ينبغي علينا اليوم الجدية والانتباه والمحاسبة والمراجعة، لأننا على أبواب القيامة، فلم تعد هناك أمة أخرى، فنحن الأمة السبعون، ونبينا هو آخر الأنبياء، قال صلى الله عليه

---

(1) البخاري برقم(6351) ومسلم برقم(2680).

(2) صحيح صححه الألباني في صحيح الترغيب برقم(625) وقال في السلسلة الصحيحة:نوو إسناده صحيح على شرط الشيخين.

(3) البخاري برقم(5301) ومسلم برقم(868).

وسلم: "أنتم توفون سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها على الله عز وجل"[1]. كما أنّ علينا أن ننظر بانتباه إلى الحوادث والوقائع حتى نأخذ منها العظة والعبرة, خصوصًا أنها علامات غير مرتبة في مجيئها.

الدرس الثاني: أقسم الله ببعض مخلوقاته ليؤكد عظمة القرآن الكريم:

لقد أقسم الله تعالى ببعض الظواهر الكونية، فقال تعالى: {فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ (15) الْجَوَارِ الْكُنَّسِ (16) وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ (17) وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ (18) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (19)}(التكوير:15-19).

إنّ القسم عندنا إنما يكون بالله تعالى، لذلك فإن للخلق حدودًا لا ينبغي لهم أن يتعدوها، ولا يحق لهم أن يتطاولوا إلى مقام الربوبية، فالقسم لا يكون إلا بالله أو صفة من صفاته، قال صلى الله عليه وسلم: "من كان حالفًا فليحلف بالله أو ليصمت"[2]. أمّا الله تعالى فله أن يقسم بما يشاء على من يشاء، فلا يُسأل عما يفعل سبحانه وتعالى.

إنّ من أراد مزيدا من البحث في النجوم وعظمة خلقها فليسأل المتخصصين أمثال الدكتور زغلول النجار، لأنه ينتقل بكم من علم اليقين إلى عين اليقين، وإنّ الإيمان حين يجمع بين السماع والرؤيا يكون أقوى وأوقع، كقول إبراهيم عليه السلام: {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي}(البقرة :260).

والدكتور زغلول النجار له عدة كتب تحوي دراسات علمية قيمة، مثل: حول السماء، وحول الأرض، وحول النجوم، وحول القمر؛ لذا أنصح باقتناء هذه الكتب، حتى نزداد علمًا ويقينًا، قال تعالى: {وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ (20) وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (21)}(الذاريات:20-21).

إنّ هذا العصر هو عصر العلم، وعصر الدليل، لأنك حين تعرض الإسلام على أحدٍ فإنه يطلب منك الدليل على صحة هذا الدين العظيم، فإن كنت تفقه دينك وتقرأ من كتب الدكتور زغلول النجار سيكون لك من الحجج والدلائل والبراهين الكونية العظيمة التي تثبت بها صحة قولك ودعوتك.

إنّ على الداعية حين يخاطب الناس ينبغي أن يخاطبهم بما يعرفون، لذلك نجد أنّ فالهدهد حين تحدث مع سليمان عليه السلام، استدلّ على معرفة الله بما يعلم، قال تعالى: {وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ (20) لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (21) فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ (22) إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (23) وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ (24) أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (25) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (26)}(النمل:20-26). فمن وظيفة الهدد أنه يرى الماء من أعماق بعيدة جدًا، أي هو المسؤول عن الماء في جيش سليمان. فهذا الهدهد استدل على الله من الوظيفة التي يعملها, فالواعظ يستخدم

(1) الترمذي برقم(3001) وابن ماجة برقم(3480) وصححه الألباني.
(2) البخاري برقم(2679) ومسلم برقم(1686).

الوعظ، والطبيب يستخدم الطب، والمهندس يستخدم الهندسة، والفلكي يستخدم الفلك، والجيولوجي يستخدم الجيولوجيا، فتخاطب كل واحد بما يعلم، عند ذلك تنجح في دعوتك.

إذن حين يقسم الله بمخلوقاته، كأن هذه دعوة للاهتمام بالعلوم التجريبية، وأقل شيء أن نعي ونفهم مدخل كل علم على الأقل، والقاعدة الأساسية لكل علم. فبالعلم يتحول الإيمان من رؤيا إلى نظر ويقين.

شبهتان والرد عليهما:

الشبهة الأولى: هي أنّ جبريل عليه السلام ألقى في روع النبي صلى الله عليه وسلم المعاني القرآنية، والنبي صلى الله عليه وسلم يعبر عنها بطريقته الخاصة، حتى قالوا: إن محمدًا جاء بالقرآن من عنده، فالمعنى من عند الله، واللفظ من عند محمد صلى الله عليه وسلم. وهذا الكلام خطير جدًا.

والجواب: هو أن الله تعالى قد بيّن في كتابه أن جبريل عليه السلام جاء بالقرآن قولًا، فقال تعالى: {إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (19) ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ (20)}(التكوير:19-20). فالقول هو الصوت، سواء أفاد أم لم يفد، فجبريل جاء بأقوال وألقاها على النبي صلى الله عليه وسلم وظهرت هذه الأقوال في قلب النبي وعلى لسانه، فليس للنبي صلى الله عليه وسلم إلا مجرد الحكاية فقط. وعلينا الحذر أن يخطر ببالنا أن جبريل ألقى المعاني على قلب النبي صلى الله عليه وسلم وأنّ فصاحة النبي صلى الله عليه وسلم هي التي صاغت لنا هذا القرآن.

وأيضًا هناك فرق بين القرآن وكلام النبي صلى الله عليه وسلم، فالله تعالى يقول في حق المؤمنين: {رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ} (الفتح:26). والرسول صلى الله عليه وسلم يقول هذا المعنى، ولكن بمجموعة كلمات حتى يصل إلى قرب هذا المعنى، حيث يقول: "مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى"[1].

فالمعنى هو المعنى، فالرب سبحانه تعالى صاغه في كلمتين، والنبي صلى الله عليه وسلم صاغه في تسع عشرة كلمة. فشتان بين الثرى والثريا، وبين الخالق والمخلوق حتى ولو كان محمدًا صلى الله عليه وسلم، فالقرآن أنزله الله تعالى لفظًا ومعنى، قال تعالى: {وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (192) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (193) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ (194) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ (195)}(الشعراء:192-195).

لذا ينبغي علينا حين نقرأ القرآن أو نسمعه نستحضر أنه كلام الله، وأنك تتكلم مع الله بكلامه، وليس هناك أجمل من كلام الله تعالى، فقد كان ابن مسعود رضي الله عنه حين يسمع قوله تعالى: {يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} يقول: ها هي أذني لك يا رب مُرني أو انهني.

الشبهة الثانية: هي أن جبريل عليه السلام كان خائنًا، حيث كانت الرسالة موجهة لعلي رضي الله عنه، فأخطأ جبريل وأعطاها محمدًا صلى الله عليه وسلم.

والجواب: أن الله تعالى قد وصف جبريل عليه السلام بالأمين، فقال تعالى: {إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (19) ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ (20) مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ

(1) البخاري برقم(6011) ومسلم برقم(2586).

(21)}(التكوير:19-21). حيث جاء جبريل الأمين ووضع القرآن في اليد الأمينة، لأنه مأمور أن يبلغه لمحمدٍ صلى الله عليه وسلم، وما عدا ذلك افتراءٌ وكذب.

لقد صحب جبريل عليه السلام محمدًا صلى الله عليه وسلم ثلاثًا وعشرين عامًا، التي منها رحلة الإسراء والمعراج إلى سدرة المنتهى، إلى أن تجلى عليه ربّ العزة سبحانه وتعالى، قال عزّ وجل: "إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى" (النجم:16). أي أصابها من النور والجلال والبهاء والجلال والجمال ما لا يخطر بالبال، أما جبريل فقد تحول إلى ما يشبه الحصير البالي، وهذا يؤكد أن جبريل عليه السلام لا يستطيع التصرف من تلقاء نفسه. وقد سأله الرسول صلى الله عليه وسلم حين تأخر في النزول عليه، فأجابه بقوله: {وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا} (مريم:64). وأيضًا قال تعالى في حق جبريل عليه السلام: {قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ * مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ}(البقرة: 97-98).

إنّ من أراد الترقي في الدنيا والآخرة فعليه بالقرآن تعلمًا وعملًا ودعوة إليه، ومن أراد الاستقامة والشرف والرفعة فعليه بهذا الكتاب، إذ لا توجد طريق للشرف والرفعة غير طريق القرآن، كما أنّ القرآن هو كتاب تذكير، يعلّم الناسي، ويزيد العالم علمًا، قال تعالى:{إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (27) لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ (28)}(التكوير:27-28). وقال تعالى: {وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ} (الزخرف:44).

إننا بارتباطنا الوثيق بكتاب الله تعالى نرتفع درجات في الدنيا والآخرة، لأن الذي يرفع يخفض هو الله، والذي يُعز ويُذل هو الله، والذي يعطي ويمنع هو الله، والذي يرزق ويوسع هو الله، والذي يقتر ويضيق هو الله، والذي يحيي ويميت هو الله، فكل شيءٍ بيده، وإليه يرجع الأمر كله.

الدرس الثالث: جهّز نفسك واستعن بما أعانك الله به حتى يكتب لك الفلاح:

لقد جعل الاستقامة على الدين من عمل الإنسان ومن إرادته وعزمه، قال تعالى: {لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ (28)} التكوير. ثم رد الله المشيئة إلى مشيئته سبحانه وتعالى فقال: {وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ}(التكوير:29).

ومن خلال هاتين الآيتين جاء الاختلاف عند الناس في القاعدة التالية: وهي هل الإنسان مسير أم مخير؟ وهذه المسألة صعبة وطويلة، والعلماء منذ القدم وهم يغوصون في أعماقها ويدورون حولها والحل بسيطٌ بإذن الله تعالى.

ولكي نعرف جواب هذه المسألة، لا بد أن نتعرف على صور الابتلاء وصور الإعانة، وذلك على النحو التالي:

أولًا: أنواع الابتلاءات التي ابتلانا الله بها:

لقد ابتلانا رب العزة والجلال بأنواعٍ من الابتلاءات وهي:

1. الرسالة: حيث طلب منا أن نعبده، وهذا في حد ذاته ابتلاء، لأنّ معناه أنّ الإنسان مأمورٌ بالعمل إلى أن يموت.

2. التكوين: حيث خلقنا سبحانه وتعالى بين النور والطين، ولم يخلقنا نورًا خالصًا، أو طينًا خالصًا، وهذا يعني أنه لا بد أن نعطي الطين حقه والروح حقها، بحيث تكون هناك

عملية توازن، لذلك فالإنسان في جهادٍ مستمر بين النفس الشريرة والنفس الخيّرة، وهذا هو من أقوى الجهاد على ظهر الأرض لأنه يستمر باستمرار عمر الإنسان على ظهر الأرض.

3. القرين من الجن: حيث جعل الله تعالى لنا قرينًا من الجن يلازمنا منذ الولادة، فكل مولودٍ له قرين من الجن يلازمه ملازمة الدم في العروق، إذا نام ينام معه، وإذا استيقظ يستيقظ معه، ويكون معه في شتى الأمكنة والأزمان، سواء في المسجد أو الحمام، البيت أو الشارع، فلا يبارحه ولا يتركه إلاّ إذا مات.

وهذا القرين لا يأمر إلا بالشر، إلا قرين النبي صلى الله عليه وسلم فإنه يأمر بالخير، قال صلى الله عليه وسلم: "إنّ الله أعانني عليه فأسلم فلا يأمر إلا بخير"[1]. إنه لا خلاص للإنسان إلاّ إن كانت له قوة إرادة يستعصي معها على القرين، ولنا أسوة في عمر بن الخطاب رضي الله عنه, حيث كان الرسول صلى الله عليه وسلم جالسًا في المسجد، فاستأذن عليه عمر وكان عنده جواري صغيرات السن وقد ألقين الحجاب، ولكن حين سمعن عمر جرين إلى الحجاب وارتدينه، فضحك النبي صلى الله عليه وسلم، فقال عمر بن الخطاب: أضحك الله سنك يا نبي الله، ما الذي أضحكك؟ فقال: هؤلاء كنّ قد ألقين الحجاب، فلما سمعن صوتك ابتدرن الحجاب، فالتفت إليهنّ عمر وقال: يا عدوات أنفسهن تهبنني ولا تهبن رسول الله! فقلن: إنك أفظ وأغلظ، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: "يا عمر إنّ الشيطان إذا لقيك سالكًا فجًا سلك فجًا غير فجك"[2]. وأيضًا كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: والله إني لأجاهد نفسي حتى لو لقيني الشيطان في طريق فصارعني لصرعته.

4. الأصدقاء من بني آدم: حيث يوجد أصدقاء يلبسون مثلما نلبس ويتكلمون مثلما نتكلم، وأسماؤهم مثل أسمائنا، لكنهم مخادعون حيث يدعون صديقهم إلى الملذات والشهوات، فينخدع بهم ويمشي خلفهم.

5. الدنيا: حيث تبرق لنا الدنيا من كل ناحية، ومن طبيعة الإنسان أنه يحب الدنيا والاستكثار من ملذاتها ومتعها وشهواتها، ولا يملأ عين ابن آدم إلا التراب.

6. العمر: إذ المطلوب طاعة الله طوال العمر، وليس مدة زمنية فقط كأسبوع أو شهر أو سنة، وهذا الامتحان يسمى امتحان الاستقامة.

فكل واحد منا له ستة ابتلاءات: رسالته، وتكوينه، وقرينه الجني، وصديقه من بني آدم من شياطين الإنس، والدنيا، وعمره.

(1) مسلم برقم(2814).
(2) البخاري برقم(3683) ومسلم برقم(2396).

ثانيًا: أنواع الإعانات الربانية للإنسان:

ماذا لو ابتلانا ربنا ولم يعنّا؟ هل يعني هذا أن نقول إن الله ظلمنا؟

كأن يأتي رجل ويربط آخر في رجليه ويديه ويلقيه في الماء ويقول له: إياك أن تبتل بالماء، مع أنّ الأحرى أن يعينه وأن يساعده بحل أربطة رجليه ويديه.

لقد أعاننا الله تعالى وساعدنا في هذه الحياة بالأمور التالية:

1. العقل: حيث يعتبر أول نعمة أعطاها الله لنا، لكي نستطيع التمييز به بين الخير والشر، والضار والنافع، والصواب والخطأ، والحق والباطل، والهدى والضلال، والنور والظلام.

إنّ العقل هو الذي جعل آدم عليه السلام أفضل من الملائكة، حيث تمّ اختبار آدم في الامتحان ونجح فيه، قال تعالى: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (30) وَعَلَّمَ آَدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (31) قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (32) قَالَ يَا آَدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (33)}(البقرة:30-33).

2. القلب: فهو عضوٌ مهم جدًا في حياة الإنسان، ويعتبر ملك الجوارح، لأنه في حالة موت القلب يموت الإنسان, يقول الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم: "ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهو القلب"[1].

لذلك لا بدّ من التوافق بين العقل والقلب، فالعقل يتعامل مع الأشياء بشكل مقنن مثل 1+1= 2. أما القلب فهو يتعامل بالانفعال والوجدان.

3. الحواس: حيث تعمل العينان والأذنان والشفتان واللسان واليدان والرجلان لصالح العقل والقلب، إذ هي بمثابة الشرطة أو العسكر لرئيس الدولة. فكما أنّ رئيس الدولة لا يستطيع الحكم بدون عسكر أو شرطة، كذلك العقل والقلب، قال تعالى: {أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ (8) وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ (9) وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ (10)"(البلد:8-10). وقال تعالى: "وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}(النحل:78).

4. الدستور أو المنهج: وهو كتاب الله تعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، فنحن من دون الوحيين لا قيمة لنا، لأننا نكون عرضة للاجتهاد والاختلاف بسبب أنّ هنالك قوانين وضعية تصل إلينا ممن لا دين لهم ولا شريعة سماوية لديهم، حيث أوصلتهم إلى تقنين الشذوذ فأباحوا زواج الرجل الرجل، بل وصل الأمر أن يتم مقاضاة من يتطاول على هذه الفئة الضالة المنحرفة التي هي عارٌ على بني آدم.

كما توصلوا بقوانينهم الوضعية إلى إباحة زواج المرأة بالمرأة، فأماتوا الحكمة من الزواج وهو التناسل والحفاظ على الجنس البشري من الانقراض، بل يسعوا إلى مقاضاة من يتطاول على هذه الفئة الضالة المخزية. فزواج السالب مع السالب لا تؤدي إلى نتيجة،

(1) البخاري برقم(1731) ومسلم برقم(1599).

كذلك الموجب مع الموجب لا يؤدي ذلك إلى نتيجة أيضًا، فالطبيعة والشرع والعقل يقتضي أن يكون التزاوج بين الموجب والسالب.

5. القدوة: حيث أعطانا الله دستورًا يشمل الشرائع والقوانين الربانية التي توافق الفطرة البشرية السوية، وتلك الشرائع القوانين قد تمّ تطبيقها في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وفي عهد الصحابة والخلفاء الراشدين، ومن بعدهم من الحكام الربانيين المهديين، وإنّ الذي طبق شرع الله من السابقين، كان بشرًا مثلنا يأكل الطعام ويمشي في الأسواق، ويصحو ويمرض، وعنده النساء، والأولاد والأحفاد والخدم، ومع ذلك فقد طبق هذا الدستور الرباني خير تطبيق، لذا علينا السير على خطاه، والاقتداء به.

6. الظواهر الكونية: حيث سخَّر الله تعالى لنا الكون، فالليل مسخر لنا، وكذلك النهار، والشمس، والقمر، والنجوم، والشجر والدواب والجبال، كل هذه المخلوقات قد سخرها الله لصالحنا، قال تعالى: {وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ}(الجاثية:13).

كما أعاننا ربنا تعالى بمخلوقات لا نراها، مثل الملائكة الذين يعملون ليل نهار لصالحنا، ويدبّرون الأمر بأمرٍ من الله عز وجل، قال تعالى: {فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا}(النازعات:5).

7. أولي الأمر: يعتبر وجود أولي الأمر إعانةٌ من الله، لأنه يوجد أناس لا ينفع معهم إلا القوة، فلولا أولي الأمر لأصبحت الحياة فوضى، فيتقتل هذا، وينتهك عرض هذا، ويسرق هذا، ولنا العبرة من ذلك، فمنذ انهيار ناظم سياد بري في الصومال وتفكك النظام فيها أصبحت الحياة لا تطاق فيها، حيث لا نظام ولا أمن.

لذا قال العلماء قديمًا: الحاكم هو ظل الله في الأرض، أو سلطان الله في الأرض، ومن مشى الى سلطان ليذله فقد أهان سلطان الله في الأرض؛ لذا ينبغي أن نحب ولي الأمر، لأنه هو الذي يضبط لنا الأمور، فيردع القوي، ويأخذ بحق الضعيف، لهذا قال عثمان بن عفان رضي الله عنه: "إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن"[1]. وقال أحد الصالحين: لو لم تكن عندي إلا دعوة واحدة مستجابة لادّخرتها للسلطان؛ لأنّ الفائدة إذا عادت على الحاكم شملت الأمّة كلها.

لذا وجب الاستماع لأوامر ولي الأمر، ما دامت لا تتعارض مع أحكام الله، قال تعالى: {يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ}(النساء :59). وقال صلى الله عليه وسلم: "من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله، ومن أطاع أميري فقد أطاعني، ومن عصى أميري فقد عصاني"[2].

8. جعلنا أمناء بعضنا على بعض: بحيث إذا رأى بعضنا بعضًا على معصيةٍ فيتحتم عليه أن ينصحه لله تعالى، مهما كان الشخص الذي أخطأ، حتى ولو كان داعية، أو شيخًا أو إمامًا، لأنه لا ينبغي أن يكون داعية يحمل كتاب الله تعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم بين جنبيه، ويكون غشاشًا، أو سارقًا، أو مغتابًا، أو يتلصص النظر على النساء، أو يعاكسهن، أو غير ذلك من الأمور التي تُذهب بالمروءة.

(1) ثابت عن عثمان رضي الله عنه انظر: مجموع فتاوى ابن باز70/10.
(2) البخاري برقم(2957) ومسلم برقم(1835).

وقد قال تعالى في وصف المؤمنين: {وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ}(التوبة:71). وقال صلى الله عليه وسلم: "الدين النصيحة"[1] ، وقال: "ولا خير في قوم لا يتناصحون ولا يقبلون النصيحة"[2].

9. التعريف بالعدو وكيف يفسد علينا حياتنا: فأول عدوٍ لنا هو إبليس، فهو عدوّنا الأكبر، وقد أعلمنا الله تعالى بطرق إبليس وحيله ومداخله، وانه أحيانًا يأتينا عن طريق الطاعة لكي يوقعنا في المعصية، كأن يمدح أحدكم درسي اليوم ويثني عليَّ خيرًا، فأُعجب بنفسي، وأذهب إلى البيت وأقرأ كثيرًا حتى أكون في المرة القادمة أفضل، فهذا فتح عليَّ بابًا عظيمًا من الرياء والسمعة، حيث كانت الدروس في بدايتها من أجل الله سبحانه وتعالى، ثم تحولت من أجل السمعة والرياء والمباهاة وما إلى ذلك.

لقد حذرنا الرسول صلى الله عليه وسلم من أن تتحول الطاعة لله إلى الإشراك به سبحانه، فقال: "إياكم وشرك السرائر، قيل: وما شرك السرائر؟ قال: يقوم أحدكم فيصلي، فيستعذب الناس صوته فيثنون عليه، فيعود ويحسّن من صوته من أجل الناس"[3]. كما حذرنا العلماء الأجلاء من مكائد إبليس، حيث ألّفوا كتبًا في ذلك منها "تلبيس إبليس"لابن الجوزي، و"إغاثة اللهفان من مكائد الشيطان" لابن القيم الجوزية، والبيان في مداخل الشيطان للشيخ البلالي.

10. التعريف بالأمراض: ومن أبرز هذه الأمراض: مرض الشبهات، ومرض الشهوات. فالشبهات: مثل أن يقول الإنسان: هل من المعقول أن يحيينا الله بعد موتنا؟ أو إذا كان الله موجودًا فأين هو لكي نراه، لأنّ كل موجود يُرى؟ وهل من المعقول أن يكون في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام ولا ينتهي؟ ويتساءل: هل من المعقول أن يأخذ الشهيد سبعين زوجة من الحور العين والمرأة لا تأخذ شيئًا؟

أما الشهوات: فأخطرها هي شهوة الجنس، وهي التي دمّرت الكثير من الناس، بل وصل الحال إلى أن الإنسان يشتهي التملك من أجل الجنس، ويشتهي الخلود من أجل الجنس أيضًا.

11. التعريف بالحقوق والواجبات: لكي يعرف الواحد منا ما له من حقوق وما عليه من واجبات.

12.لا توجد بيننا وبين الله واسطة: فالله تعالى مع المؤمنين، قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ} (النحل:128). وقال تعالى على لسان سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم: {لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا}(التوبة:40). وقال تعالى على لسان سيدنا موسى عليه السلام: {قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ}(الشعراء:62).

ومما تقدّم بيانه فإنّ عدد الابتلاءات التي ابتلانا الله بها ستة، أما الإعانات فهي اثنتا عشرة، وبالتالي: فلو سئلنا هل الإنسان مسيّر أم مخيَّر؟ فسيكون الجواب بالتاكيد: أنه مخيّر, وأنّ الإنسان الذي لم ينتفع من الإعانات السالفة الذكر فإنه كسول. وقد سئل الشيخ محمد الغزالي رحمه الله هذا السؤال فأجاب بأنّ الإنسان الأوربي الغربي مخيَّر، وأما الإنسان العربي الشرقي فإنه مسيّر، قيل له: إنها إجابة سياسية، فقال: رجل دخل البحر

(1) مسلم برقم (55).
(2) موقوف على عمر رضي الله عنه، وليس حديثا مرفوعا.
(3) حسن، حسنه الألباني في صحيح الترغيب برقم (31).

وبينما هو يغرق قال: أنا مسيّر أم مخيّر، وكان الأولى أن يخرج من البحر ثم يناقش هذا الأمر.

فالذي يستخدم عقله على الوجه الأكمل ويستفيد منه هو المخير، فالإنسان الغربي لم يستخدم إلا إعانة واحدة من الله تعالى وهي العقل، ووصل بها إلى القمر، أما نحن فنملك اثنتا عشرة إعانة من الله تعالى، ولم نستخدمها الاستخدام الأكمل. وإنّ مثلنا كمثل من دخل حلقة للسباق، وفي تلك الحلقة ست معوقات، واثنتا عشرة إعانة، فمن استفاد من اثنتي عشرة إعانة نجح، ومن لم يستفد منها لم ينجح.

إنّ السعيد هو الذي يتخذ قرار السعادة، وإنّ الشقي هو الذي يتخذ قرار الشقاء، فحين أتخذ قرار السعادة يكتب الله لي أني من السعداء، وحين أتخذ قرار الشقاء يكتب الله عليّ أني من الأشقياء، فالله تعالى علم بعلمه السابق أنك سوف تختار السعادة أو الشقاوة، فكتب عليك ذلك وفق اختيارك، قال تعالى: {وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ}(التكوير:29).

لقد أعطانا المولى سبحانه وتعالى جميع الإعانات التي تساعدنا في الدنيا، وتوصلنا إلى الآخرة، وإنّ الذي يترك هذه الإعانات ليس له سبيل ولا طريق إلا سبيل وطريق إبليس، وهو طريق الهاوية، وحين يسقط في هذه الطريق يتخلى عنه الشيطان، ويقول إني أخاف الله رب العالمين، قال تعالى: {كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ} (الحشر:16).

إنّ الذي يسلك طريق الهداية فإنّ الملائكة ستساعده إلى أن يصل إلى شاطئ الأمان، وسيكون مصيره الجنة، وإنّ الذي يتبع خطوات الشيطان سيكون مصيره النار، قال تعالى: {وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ}(محمد:17). وقال سبحانه:{وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى}(مريم:79). وقال عزّ وجل: {فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ}(الصف:5).

وقد جاء رجل إلى عمر ابن الخطاب رضي الله عنه، وكان متلبسًا بالسرقة، فقال له عمر: لماذا سرقت؟ قال: إن الله كتب عليَّ السرقة، فأمر بقطع يده، وضربه ثلاثين سوطًا. فقطع يده من أجل السرقة، وضربه بالسوط لأنه أساء الأدب مع الله واحتج بالقدر بأنّ الله قدّر عليَّ السرقة.

وفي الحديث أن النبي صلى صلى الله عليه وسلم قال: احتج آدم وموسى. فقال موسى: يا آدم أنت أبونا. خيبتنا وأخرجتنا من الجنة. فقال له آدم: أنت موسى. اصطفاك الله بكلامه، وخط لك بيده، أتلومني على أمرٍ قدّره الله علي قبل أن يخلقني بأربعين سنة؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: فحج آدم موسى. فحج آدم موسى". وفي رواية ابن أبي عمر وابن عبدة. قال أحدهما: خطّ. وقال الآخر: كتب لك التوراة بيده"[1]. فإياك أخي المسلم حين تقع في الخطأ أن تقول: قدّر الله عليَّ، ولكن قل قدر الله وما شاء وقع. ولتعلم أنك المباشر لجميع أفعالك.

والحمد لله رب العالمين

(1) البخاري برقم(6614) ومسلم برقم(2652).

الدروس والعبر من سورة الانفطار

ابتدأت سورة الانفطار بذكر علامات القيامة، قال تعالى: {إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ (1) وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ (2) وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ (3) وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ (4) عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ (5)} (الانفطار:1-5).

ومعنى الانفطار هو انشقاق السماء.

ومعنى {وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ} أي أنها تفقد تناسقها وترتيبها وانتظامها، لأنّ نظام الكون سيختل يوم القيامة، وهذه أحد أمارات الساعة. يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: "النجوم أمنة للسماء فإذا ذهبت النجوم أتى الناس ما يوعدون"[1].

وعليه فإذا كانت النجوم متناسقة ومنتظمة في السماء فنطمئن، أما إن زالت أو اختلطت مع بعضها، فلنوقن أن هناك بلاءً قادمًا, وذلك لأنّ النجوم تنجذب لبعضها البعض بقوة متساوية، وبما أن القوتين متساويتين فلا يستطيع أحدهما قهر الآخر فيدوران حول بعضهما بعضا, كذلك النجوم تلف وتدور حول بعضها بعضا بسبب الجاذبية والنسبية. أما حين يريد الله تعالى هدم هذه المنظومة واختلالها، فإنه يأمر نجمًا واحدًا بالخروج عن المنظومة، وبالتالي يتبعه كل النجوم في التناثر، ومن ثمّ ينهار العالم وينخرب هذا الكون بخروج نجم واحدٍ عن المنظومة الكونية.

ومن المعروف أنّ النجوم تختلف اختلافًا كليًا عن الشهب والنيازك، ذلك أنّ الشهب مسخرة للهجوم على الشياطين، وإنّ الشهاب الذي يسقط يستبدله الله بشهابٍ آخر حتى يستقيم الكون، قال تعالى: {إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ} (الصافات:10). أما النجوم فقد وصفها النبي الكريم صلى الله عليه وسلم بأنها امنة للسماء، فقال: "النجوم أمنة للسماء، فإذا ذهبت النجوم أتى الناس ما يوعدون، وأنا أمنة لكم فإذا ذهبت أتاكم ما توعدون. وأصحابي أمنة لكم، فإذا ذهب أصحابي أتاكم ما توعدون"[2]. وقد قال تعالى عن نبيه عليه الصلاة والسلام: {وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (33)} (الأنفال:33).

(1) مسلم برقم(2531).
(2) سبق تخريجه في الفقرة رقم(1).

إنّ سورة الانفطار تحمل دروسًا وعبرًا عظيمة، ومن هذه الدروس ما يلي:

الدرس الأول: أن نعيش بين الخوف والرجاء:

قال تعالى:{يَأَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ (6) الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ (7)} (الانفطار:6-7). لقد عرف الإنسان أن الله عفو، وأنه غفار، وأنه تواب، ولكن غره ذلك فبدأ يتطاول على الله عزّ وجل، وعلى حقوق العباد, فهل كونه تعالى عفوا كريمًا غفورًا، يجعل الإنسان يتجاوز حدود الأدب مع الله؟ إنّ الكريم يغضب إنصافا للمظلومين.

إنّ الدرس الذي نستفيده من هذه الآية: هو أنه لا ينبغي أن نعيش على الرجاء ونترك العمل، وإنما نعيش بين الرجاء والخوف. فحين نقرأ في القرآن أن الله غفور رحيم، كذلك لا بد أن نوقن أن الله شديد العقاب، فالله قادر على الخسف بنا بين لحظة وأخرى، ففي مجال الرجاء يقول سبحانه: {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ}(الزمر:53). وهذا لا يعني أن يغتر الإنسان بعفو الله وبحلم الله وكرم الله، ولا يقول إن سألني الله يوم القيامة: لم عصيتني؟ سأجيب بأني طمعت في كرمه، فهذا لا يصح الاحتجاج به.

وفي مجال الخوف يقول تعالى: {فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ} (العنكبوت:40).، وقال تعالى: {ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} (الروم:41). وقال سبحانه وتعالى: {وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ} (الشورى:30).

إنّ الإمام الشافعي الذي وصفوه بأنه كالشمس للدنيا، والعافية للناس، وكان موضع احترام وإجلال من كل الناس، وخصوصًا من الإمام أحمد بن حنبل، لما حضرته الوفاة، زاره تلاميذه فوجدوه يبكي، فسئل لم البكاء؟ فقال: أصبحت من الدنيا راحلًا, وللإخوان مفارقًا, ولسوء عملي ملاقيًا، وعلى الله واردًا، ولا أدري أيؤمر بي إلى الجنة أم يؤمر بي إلى النار، وبكى. ثم قال:

ولما قسى قلبي وضاقت مذاهبي جعلت الرجاء مني لعفوك سلما

تعـــــاظمني ذنبـــــي فلما قرنتـــــه بعفوك ربي كان عـــــــفوك أعظما

فليحذر العصاة انتقام الله بسبب التمادي في المعصية، لأن انتقام الله قد يأتي بغتة، ولا يغتر بعض من يمارسون المعصية عشرات السنين ويقولون: لم يفعل الله بنا شيئًا، فهذا اغترار بحلم الله، وقد قال تعالى: {وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ}(هود:102). وقال صلى الله عليه وسلم: "إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته"[1].

وفي المقابل هنالك بعض الناس من الذين أكثروا العصيان يقولون: كيف يغفر الله كل هذه الذنوب؟ فييأسون من رحمة الله تعالى، وليس للإنسان أن ييأس من رحمة الله، لأن

(1) البخاري برقم(4686) ومسلم برقم(2583).

رب العزة والجلال من الممكن أن يمحو تلك الذنوب جميعًا بعمل واحد، أو بغير بعمل، بشرط أن يلقوا الله تعالى على التوحيد الخالص. قال تعالى: "إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء".

الدرس الثاني:اليقين بأنّ أعمالنا محصية علينا:

لا بد أن نوقن أنّ جميع أعمالنا محصية علينا، وأنه ما من عملٍ إلا وعليه شاهد، وأنّ الصحيفة مدوّن عليها كل شيء، قال تعالى: {وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ (10) كِرَامًا كَاتِبِينَ (11)}(الانفطار:10-11). وقال تعالى: {وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا (13) اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا (14)}(الاسراء:13-14).

وهناك شهود أخرى هي الجوارح التي اقترفت الذنب، قال صلى الله عليه وسلم: "يقول الرب يوم القيامة للرب ابن آدم: ألم أخلقك، ألم أزوجك، ألم أرزقك، ألم أعطك مالًا وولدًا، فيقول: بلى، فيقول له: هل فكّرت أنك ملاقي، فيقول: يا رب ما ظننت أني ملاقيك، لقد نسيت هذا اليوم كما نسيت نفسي، فيختم على الفم، فلا يتكلم، فتتكلم الجوارح وتشهد على ما فعلت، من ذنوب ومعاصي، قال تعالى: {الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ}(يس:65). وقال تعالى: {يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}(النور:24).

فالشّاهد الأول: الكتاب، والشاهد الثاني: الجوارح، والشاهد الثالث: الأرض، قال تعالى: {يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا (4) بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا (5)} (الزلزلة:4-5). والشاهد الرابع: السماء، فالعمل يصعد إلى السماء، فإما أن يصل إلى الله أو يُرد، ويقال: إنّ السماء والأرض تبكيان العبد الصالح حين يموت، أما الفاجر فتفرح بموته السماء والأرض، فحين مات فرعون وجنوده لم تبك عليهم السماء ولا الأرض، قال تعالى: {فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ}(الدخان:29).

والشاهد الأكبر هو الله تعالى، الذي يعلم كلّ شيى، قال تعالى:{يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ}(المجادلة:6). وقال تعالى: {يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ} (المجادلة:18).

إنّ أي معصية نقترفها فسيكون علينا خمسة شهود، قال تعالى: {وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ (10) كِرَامًا كَاتِبِينَ (11)}(الانفطار:10-11).

الدرس الثالث: يوم القيامة لا ينفعك أحد:

لقد أكدت سورة الانفطار على أنّه لاينفع أحد أحدًا يوم القيامة، فقال تعالى: {يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ} (الانفطار:19).

إنّ الأب والزوجة والولد وسائر الأقارب لا ينفعون في ذلك اليوم العظيم، فلكلّ واحد منهم شأن يغنيه، بل أنّ الملائكة والأنبياء لا يملكون من أمرهم شيئًا، قال تعالى: {وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا}(لقمان:33). وقال تعالى: {وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا} (البقرة:48). فالملك يومئذ لله يحكم بينهم، قال

الله تعالى: {الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا}(الفرقان:26). وقال تعالى: {لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ} (غافر:16).

إنّ مرجعنا إلى الله تعالى، فإليه الملجأ وإليه المصير، قال تعالى: {وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ}(الإنعام:94). وقال تعالى: {وَكُلُّهُمْ آَتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا}(مريم:95). وفي الحديث: "يتبع الميت ثلاثة أهله وماله وعمله، فيرجع اثنان ويبقى الثالث، يرجع أهله وماله، ويبقى عمله"[1].

لذلك علينا أن نعمل الطاعات، وأن لا نتكل على عملنا بل نتكل على الله تعالى، قال صلى الله عليه وسلم: "لا يدخل أحد منكم الجنة بعمله، قالوا: حتى أنت؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله بفضل ورحمة"[2]. فالأعمال بمفردها لا تدخل الجنة، بل تكون سببًا في رضا الله تعالى، وإن الله تعالى يدخلنا الجنة بفضله، ثم بعد ذلك يقسم بيننا مراتب الجنة بحسب أعمالنا.

ويؤيد هذا ما جاء في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "إن الله خلق رجلًا من بني إسرائيل في جزيرة في وسط البحر، بينها وبين الشاطئ من جميع الجهات 4000 فرسخ، فأنبت له شجرة تين، تعطيه حبة كل يوم عند الغروب يفطر عليها، وعين عذبة وسط البحر يشرب منها الماء، ويعبد الله، وعاش خمسمائة سنة يعبد الله ولا يعرف المعصية، فلما حضرته الوفاة قال الله للملائكة الموكلين به: اسألوه على أي حالٍ يحب أن يموت واقبضوه عليها، فلما سألته الملائكة، قال: أحب أن أموت وأنا ساجد، فقبضوه وهو ساجد، فلما قبضت روحه قال الله: اجعلوا روحه في عليين بفضلي وكرمي ورحمتي، فقال العبد الصالح: بل بعملي، فقال الله تعالى: زنوا أعماله وأدنى نعمة عنده وهي نعمة البصر، فوضعوا نعمة البصر في كفة وكل أعماله في كفة، فطاشت أعماله ونزلت كفة البصر، قال: أدخلوه النار بعدلي، فقال: يا رب أدخل الجنة بفضلك وعدلك ورحمتك"[3].

وقد قال تعالى أيضًا: {وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}(الزخرف:72). وفي الجنة تختلف مراتب الناس، فمنهم من يرتقي بهم عملهم إلى الفردوس، ومنهم من يدخلون جنة المأوى، ومنهم من يدخلون جنة المنتهى، وكل حسب عمله، ثم يكون الفضل من المولى سبحانه، قال تعالى: {وَالَّذِينَ آَمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ} (الطور:21).

والحمد لله رب العالمين

(1) البخاري برقم(6514) ومسلم برقم(2960).
(2) البخاري برقم(5673) ومسلم برقم(2816).
(3) ضعيف ضعفه الألباني انظر السلسلة الضعيفة برقم(1183).

الدروس والعبر من سورة المطففين

إنّ سورة المطففين تحمل دروسًا وعبرًا عظيمة، ومن هذه الدروس والعبر ما يلي:

الدرس الأول: ضرورة أن يتحرى الأنسان الحلال فيما يطعمه أو يشربه أو يلبسه:

يقول رب العزة والجلال سبحانه: {وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ (1) الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (2) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (3) أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ (4) لِيَوْمٍ عَظِيمٍ (5) يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (6)}(المطففين:1-6).

والسؤال هنا: لماذا يجب علينا أن نتحرى الحلال في كل شئ؟

والجواب: لأن الحرام يفسد القلب، وإذا فسد القلب فسد السلوك، يقول النبي صلى الله عليه وسلم: "ألا وإن في القلب مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب"[1] .

إن الإنسان إذا أكل شيئًا حرامًا، فإنّ القلب يتأذى من وراء ذلك، وإن نصوص القرآن الكريم والأحاديث النبوية فيها بيان للمراحل التي يمر بها القلب حين يأكل الإنسان لقمة واحدة من الحرام، وهذه المراحل هي على النحو التالي:

المرحلة الأولى: الغين.

هنالك فرق بين الغين الغيم، فالغين: هو ضبابٌ خفيف في صفحة القلب لا يُرى بالعين المجردة أبدًا، فإذا أصاب الإنسان فإنه لا يؤثر عليه بل يرى نفسه من المقربين، أما إذا أصاب الأنبياء عليهم السلام، فنجد أنّ النبي يستغفر الله ليلًا ونهارًا ويكثر من الذكر والطاعات حتى ينجلي القلب، فالغين خاصٌ بالأنبياء، يقول النبي صلى الله عليه وسلم: "إنه ليغان على قلبي فأستغفر الله في اليوم مائة مرة"[2] ، حيث يرى أن النوم فيه انقطاع عن الذكر والطاعة، مع أن النوم إن كان يريد به الإنسان الاستعانة على الطاعة وعلى أداء واجبه فله أجر في ذلك، حتى أن الظالم يعتبر النوم في حقه رحمة من الله به.

وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول: إنه تصيبه في بعض الأحيان حالة من النسيان، كأن يغضب على أحد الناس، فالغضب يؤثّر على القلب. أو كأن يدخل بيت الخلاء فهذا يؤثر على القلب، أو يعاشر أهله، فيؤثّر على القلب، لذا فقد كان عليه الصلاة والسلام مكثرًا من التوبة والاستغفار.

لقد كان الصحابة رضوان الله عليهم يقولون: "إن كنا لنعد لرسول الله صلى الله عليه وسلم في المجلس الواحد مائة مرة رب اغفر لي وتب علي إنك أنت التواب الرحيم"[3]. هذا في المجلس الواحد فما بالنا إذا كانت مجالسه تتعدد في اليوم والليلة، لذا علينا أن نكثر من التوبة والاستغفار اقتداء بنبينا الكريم. وقد قال بعض العلماء: حسنات الأبرار سيئات المقربين.

وسيد الاستغفار هو: "اللهم أنت رب لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت أبوء لك بنعمتك عليّ وأبوء بذنبي

(1) البخاري برقم(52) ومسلم برقم(1599).
(2) مسلم برقم(2702) وأبي داود برقم(1515) وصححه الألباني في صحيح أبي داود.
(3) صحيح صححه الألباني في صحيح أبي داود برقم(1516) وفي صحيح الترمذي برقم(3434).

فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت"[1]. أو يقول: "رب اغفر لي وارحمني إنك أنت التواب الرحيم"[2].

أو يقول: "لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين"[3]. أو يقول: "أستغفر الله الذي لا إله هو الحي القيوم وأتوب إليه"[4].

المرحلة الثانية: الغيم:

الغيم: هو بداية المعصية، وإنّ الإنسان بمجرد أكل لقمة واحدة من الحرام فإنه يسودُّ جانب من القلب من أعلى إلى أدنى، قال صلى الله عليه وسلم: "إن المؤمن إذا أذنب ذنبًا نكت في قلبه نكتة سوداء". والنكت يعني الغرز، فهذا الجانب الذي أصابه السواد يؤثر على حياة الإنسان وعلى فقه الإنسان، فإذا سمع مثلًا مائة مسألة فستضيع بعض المسائل، لأنه ما زال السواد محدودًا، وما زالت المعصية محدودة.

المرحلة الثالثة: الران:

الران: هو سيطرة المعصية والتمادي فيها، فإذا تمادى الإنسان في المعصية، فإن سواد القلب يزيد يومًا بعد يوم، حتى يغطّى القلب بالسواد، قال تعالى: {كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ}(المطففين:14). فيصاب القلب بحجاب، يحجبه عن النور والمعرفة، كما يحجبه عن التأثر بآيات الله القرآنية والكونية.

المرحلة الرابعة: مرحلة الطبع والختم:

إنّ الإنسان عندما يصر على المعاصي ولا يرتدع ولا يرعوي ولا يرجع إلى الله عز وجل، فإنها تاتي طبقة ثانية من السواد وتكون فوق الطبقة الأولى، ثم طبقة ثالثة ورابعة حتى يمتلئ القلب بالسواد، وحين يمتلئ القلب يُقفل ويكون مغلقًا، قال تعالى: {أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا} (محمد:24).

وينطبق عليهم قوله تعالى: {وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ}(فصلت:5). وقوله تعالى: {وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا}(الإسراء :45). وقول الله تعالى حاكيا عن اليهود إنهم قالوا: {وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ} (البقرة:88).

إن الإنسان بسبب تماديه في أكل الحرام قد يصل به الحال إلى أن يختم ويطبع على قلبه، قال تعالى: {خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ}(البقرة:7). وقال تعالى: {بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا} (النساء:155). وقال تعالى: {أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ}(النحل:108).

إنّ أفضل ما يفعله المؤمن بعد إيمانه بلا إله إلا الله محمد رسول الله، أن يتقي الله في طعامه وشرابه ولباسه وكل ما ينفقه. قال تعالى: {وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ

(1) البخاري برقم(6306) والترمذي برقم(3393) والنسائي برقم(5537) وصححه الألباني في صحيح الترمذي وصحيح النسائي.

(2) مسند أحمد برقم(190/7),أبو داود برقم(1516) وابن ماجة برقم(3090) وصححه الألباني في صحيح ابي داود وصحيح ابن ماجة.

(3) صحيح صححه الألباني في صحيح الجامع برقم(3383) وفي صحيح الترمذي برقم(3505).

(4) صحيح صححه الألباني في صحيح أبي داود برقم(1517)وفي صحيح الترمذي برقم(1622).

الرَّحِيمُ (163) إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (164) وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ (165) إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ (166) وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ (167)}(البقرة:163-167). فبعد التوحيد الخالص لله يأتي قوله تعالى: {يَاأَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ} (البقرة:168).

لقد ابتدأت سورة المطففين بالويل لمن يأكل الحرام، قال تعالى: {وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ (1) الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (2) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (3)} (المطففين:1-3). فهذا الحرام التي ذكرته الآية هو الربا، وذلك أن الإنسان عند الأخذ يأخذ حقه كاملًا، وعند العطاء يعطي بالنقص.

وهذه الجريمة كان يعملها قوم نبي الله شعيب عليه السلام -أهل مدين وأصحاب الأيكة- حيث كانوا يعيشون في "معان والزرقاء" في الأردن، وكانوا يعيشون على أكل أموال الناس بالباطل، حيث يستغلون حاجتهم لأكل أموالهم، وهذا هو الربا، وذلك لأن نظرية الربا قائمة في الأساس على الاستغلال، بمعنى أن يوجد رجال يملكون الأموال ويقومون بتأجيرها بفائدة، ولا يقومون بتشغيلها حتى لا يكونوا عرضة للمكسب والخسارة، فتأتيهم الأموال إلى بيوتهم بدون تعب أو كد.

وهذا نابعٌ من عدم الإيمان بالله واليوم الآخر، لذلك أرسل الله إليهم شعيبًا عليه السلام إلى مدين وأصحاب الأيكة يدعوهم إلى الإيمان بالله، قال تعالى: {وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شعيب قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ (84) وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (85)}(هود:84-85).

إنّ على المسلم أن يعتمد على الله تعالى، وأن يتوكل عليه وحده، وأن يقوم بالأسباب الصحيحة للكسب وسوف يسوق الله له الرزق كما يسوق إليه أجله، لأن الرب -الذي يرزق- لا يموت أما المال فهو عرضٌ زائل، قال تعالى: {وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ}(الفرقان:58). وقد قيل لسيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه: لو أن رجلًا حُبس في بيتٍ ليس له باب ولا نافذة من أين يأتيه رزقه؟ قال: من المكان الذي يأتي منه أجله يأتي منه رزقه.

لذلك على الإنسان أن يبحث عن رزقه متتبعًا الأسباب فقط، وليتق الله من أكل الحرام، قال تعالى: "وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ" (البقرة:188).

إن هنالك مظاهر وصور لأكل الحرام غير الربا، وذلك مثل:

1. السرقة: وهي أخذ المال من حرزه خفية.
2. الغصب: وهو أن يأخذ أحد الأقوياء مال الفقير عنوة وأمام الناس.

3. الرشوة: فقد جاء في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم :"لعن الله الراشي والمرتشي والرائش"[1] والرائش: هو الذي يقوم بالوساطة بين الراشي والمرتشي.

4. المتسولون دون الحاجة والاضطرار لذلك: فهذا باب من أبواب أكل أموال الناس بالباطل.

5. المانعون زكاة أموالهم: فهذا المنع نكبة عليهم.

6. الذين يغشون في البيع والشراء: فقد دخل الرسول صلى الله عليه وسلم السوق، فوجد كومًا من الطعام فوضع يده فأخرج طعامًا مبتلًا، فقال: ما هذا يا صاحب الطعام؟ قال: أصابته ماء السماء، فقال: هلا جعلته فوق الطعام ليراه الناس، ثم قال: "من غشنا فليس منا"[2].

7. الذي يغالي في الأسعار حتى يقضي على التجار الصغار.

لقد سن النبي صلى الله عليه وسلم تشريعات تضبط عملية البيع والشراء، ومن ذلك: نهيه عن تلقي الركبان على أبواب المدينة، بل يتركون الناس يرزق الله بعضهم من بعض، ونهيه عن أن يبيع حاضر لباد فقال: "لا يبع حاضر لباد"[3]. كما منع الاحتكار، وهو أن يقوم التاجر بتخزين السلع في المخازن إلى أن تشح من الأسواق، ثم يبيعها بالسعر الذي يريد، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "المحتكر ملعون والجالب مرزوق"[4]. كذلك عندما قام أحد التجار بخفض السعر رغبة منه في القضاء على التجار الصغار، طلب منه الرسول صلى الله عليه وسلم، إما أن يرفع السعر، أو أن يقوم من السوق.

8. الذي لايتقن عمله الذي يتقاضى عليه راتبًا ومعاشًا.

إنّ السورة تتحدث عن الكيل، قال تعالى: {وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ (1) الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (2) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (3)}(المطففين:1-3). والويل: هو الهلاك، وقد يكون واديًا في جهنم مخصوص لهؤلاء الصنف من البشر.

لماذا يفعلون ذلك؟{أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ (4) لِيَوْمٍ عَظِيمٍ (5) يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ}(المطففين(5-4). لقد نسوا وتناسوا أنهم سيعرضون على الله، في يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم: {كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ}(المدثر:38). ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم: "لا تزول قدما عبد حتى يسأل عن: شبابه فيما أفناه، وعن عمره فيما أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه، وعن علمه ماذا عمل فيه"[5].

إنّ الدرس الذي نخرج به من وراء هذه الآيات الكريمات هو تحري الحلال.

إنّ العالم الجليل سعيد النورسي، وهو صاحب مدرسة في التربية وتصفية النفوس، وذلك إلى أن يعود للأمة مجدها، دون أن تتطاحن على السلطة والقيادة. لقد كان سعيد

---

(1) حديث منكر ضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة برقم(1235) والحديث الصحيح(لعن رسول الله الراشي والمرتشي) انظر: صحيح الترمذي رقم(1337) وصحيح أبي داود رقم(3580).

(2) صحيح، صححه الألباني في صحيح الجامع برقم(6218) وصحيح الترغيب برقم(1768).

(3) البخاري برقم(2723) ومسلم برقم(1768).

(4) ضعيف، ضعفه الألباني في ضعيف الجامع برقم(2645).

(5) صحيح، صححه الألباني في صحيح الترمذي برقم(2416) وفي صحيح الترغيب برقم(3593).

النورسي يحضر عند المعلم يومًا واحدًا في الأسبوع ، لكنه يظل طوال الأسبوع في حالة من التذكار والدرس المستمر ولذلك فاق أقرانه.

وعندما سمع عنه بعض الأوروبيين الذين زاروا تركيا بعد الخلافة، عزم على زيارة بيته لكي يرى والديه، لمعرفة ما سر تلك الذاكرة النيرة التي رُزق بها سعيد النورسي، وعندما ذهب إلى البيت وجد أمه وسألها عن ابنها فقالت: إنه في المزرعة، وفي المساء عاد ومعه جواميسه، وعلى فم كل جاموسة من الجواميس كمامة، فقال الأوروبي ما هذا؟ قال سعيد: نحن نمر في طريقنا إلى بيتنا على أراضي الغير، ولو تركنا الجواميس بدون كمامة لأكلت من زروع الغير، ولتحول ذلك إلى لبن، فيشربه أولادي، فتفسد أرواحهم ونفوسهم، وهنا قال الأوربي: من أجل هذا صار ابنك نقيًا نظيفًا سريع الحفظ والبديهة.

لقد أمرنا الله بأكل الحلال فقال عزّ وجل في كتابه الكريم: "يَأَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا" (البقرة: 168). والنبي صلى الله عليه وسلم يقول: "إنّ الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء يا رب يا رب ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغذي بالحرام فأنى يستجاب لذلك"[1].

فالذي يحول بين الناس وبين استجابة الدعاء هو أكل الحرام، لذا ينبغي أن نأخذ حذرنا، فإنّ العقوبة في الدنيا هي قسوة القلب والقلق والاضطراب، وفساد الاخلاق والسلوك، بالإضافة إلى أن الإنسان لا يجد لذة للطاعة إن هو أدّاها، ومن العقوبة في الدنيا أيضًا أن يسلط الله علينا الظواهر الكونية: ومن ذلك أن يكون الهواء ملوثا، وأن يكون الماء ملوثا، وكذلك الفرقة والقطيعة وربما الحروب الأهلية.

أما العقوبة في الآخرة، فهي الوقوف بين يدي الله سبحانه وتعالى للسؤال، وفي النهاية يحكم الله عليه بحبس روحه في سجين، قال صلى الله عليه وسلم: "إن الفاجر إذا كان في إدبار من الدنيا وإقبال على الآخرة جاءته ملائكة ومعهم جلود من جلود الضأن، ويأخذون ويعالجون الروح ويجلس ملك الموت منه على مد البصر، فما يجرون الروح إلا ويصاب بألم ما بعده ألم، أشبه بشوكة في صوف مبتل، يجد ألمًا شديدًا جدًا، وعندما تخرج الروح تخرج منها ريح منتنة ما شمت الخلائق ريحًا مثلها، ويشم ذلك كل المخلوقات إلا الإنس والجن، وحين يصعدون به إلى الأعلى يسألونهم ريح من هذا المنتن القبيح، فيقولون: ريح فلان بن فلان، ويسمونه بأقبح أسمائه، حتى إذا جاؤوا للسماء الدنيا ويستفتحوا فلن يُفتح له، ثم قرأ النبي صلى الله عليه وسلم: {إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ}(الاعراف:40). ثم يقول الله تعالى: اجعلوه في سجين، فتترك الملائكة الروح يسقط من السماء الدنيا إلى الأرض، قال تعالى: {وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ}(الحج:31).

ثم يحبس في قبره، وبعد أن يتركه الملكان، ينشق جانب من القبر، فيدخل عليه رجل أسود اللون، قبيح الريح منتن الريح، فيقول: من أنت يا عبدالله فوجهك الوجه القبيح الذي لا يأتي بخير أبدًا، فيقول: أنا عملك السيئ الذي كنت تعمل في الدنيا، فيقول: رب لا تقم الساعة"[2].

(1) مسلم برقم(1015).
(2) صحيح، صححه الألباني في صحيح الترغيب برقم(3558).

لقد كان الإمام ابن حجر العسقلاني يهتم بمظهره، ويرتدي لباس العلماء، ولديه غلام يعد له الدابة والمسرجة، وبينما ركب الدابة ذات مرة، وجد في الطريق رجلًا يهوديًا أشعث الرأس، ممزق الثياب، حافي القدمي، فأمسك بزمام الدابة، وقال يا شيخ: نبيكم يقول: الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر، فأنت في النعمة التي فيها سجن، وأنا في الشقاء الذي فيه جنة, فقال: ما أنا فيه من النعيم مقارنة بالنعيم الذي ينتظرني يوم القيامة لو مت على الإسلام سجن، وما أنت فيه من الراحة والبحبوحة بالرغم من أنك في شقاء، يعتبر جنة مقارنة بالعذاب الذي ينتظرك إذا مت على ما أنت عليه.

لذا يقول الفاسق والفاجر والعاصي في قبره: ربّ لا تقم الساعة، فالحبس في القبر أفضل حالًا مما سيأتي بعد ذلك.

إنّ عقوبة المتمادين في أكل الحرام هي أنهم يحرمون يوم القيامة من رؤية الله سبحانه وتعالى، قال عز وجل: {كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ (15) ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُواْ الْجَحِيمِ (16)}(المطففين:15-16). أي يُلقون في وسطها.

فالناس يوم القيامة أصنافٌ ثلاثة:

الصنف الأول: صنفٌ يؤمَّنهم الله تعالى ويسلم عليهم، ويؤتون كتبهم بأيمانهم، ويمرون على الصراط بسرعة، ثم يدخلون دار السلام.

الصنف الثاني: صنفٌ يرخي كنفه عليه، ويقول لكل واحد منهم: أنت فعلت كذا وكذا، فيقول له: سترتك في الدنيا، وأسترك اليوم، ثم يُعطى هذا الصنف كتابهم بأيمانهم وتوزن أعمالهم ويمرون على الصراط ويدخلون الجنة.

والصنف الثالث: صنفٌ لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم.

والسؤال الذي يطرح نفسه: من منّا مستعد مقابل عَرض زائل أو حفنة من التراب أن يضحي برضوان الله تعالى وجنانه، كالذي لا يخرج زكاة ماله إذا بلغت النصاب؟ قال تعالى:{وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (34) يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ (35)}(التوبة:34-35).

وقال صلى الله عليه وسلم: "ما من صاحب ذهب ولا فضة إلا إذا كان يوم القيامة صفحت له صفائح من نار فيكوى بها جبينه وجنبه وظهره في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يقضى بين العباد ويرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار"[1].

إن البخل بالمال عن العطاء الواجب شر على الإنسان، قال تعالى:{وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ}(ال عمران:180).

وأؤكد أن الدرس الذي نأخذه هو تحري الحلال.

(1) مسلم برقم(987).

وقديما كانت المرأة تحذر زوجها وتقول له: اتق الله فينا، فإنا نصبر على الجوع ولا نصبر على النار. فمن السهل على الإنسان أن يصبر على الأكل يومًا أو يومين، لكن لا يصبر على النار.

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: كنا نضع سبعين بابًا من الحلال خشية أن نقع في باب من الحرام.

لقد كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه كثير الصيام، وكان له غلام يأتيه بالطعام للإفطار، وكان حريصًا على أن يسأل عن مصدر الطعام، ففي يومٍ من الأيام لم يسأل بسبب طول اليوم وشدة الحر، فقال له الغلام: لماذا لم تسألني اليوم عن مصدر الطعام؟ فقال: حملني على ذلك الجوع، من أين جئت بهذا الطعام؟ فقال الغلام: قال: مررت على جماعة في الجاهلية فتكهنت لهم ولا أحسن الكهانة، ووعدوني، واليوم أعطوني لحمًا، فقال: خيب الله من جاء بالطعام ومن أعطاك الطعام، لقد كدت أن تضيعني، ثم دعا بإناء وماء وأخذ يشرب ويضع أصبعه في حلقه إلى أن قاء كل ما في بطنه، فقيل له: كل هذا من أجل قطعة من اللحم، فقال: والله إن لم تخرج إلاّ مع نفسي لأخرجتها, لأني سمعت الرسول صلى الله عليه وسلم يقول: "كل جسد نبت من سحتٍ فالنار أولى به"[1]. وأيضًا فقد جاءت لعمر ابن الخطاب رضي الله عنه بعض الثياب فوزعها على المسلمات، ولم يبق إلا ثوب واحد، فأخذ يسأل لمن أعطه؟ فقيل له: أعطه لأم كلثوم بنت علي زوجتك، فرفض، ثم فكر فأعطاه لأم سليط، أم الصحابي الجليل أبي سعيد الخدري، حيث كانت تخيط لهم القرب يوم أحد.

وفي يومٍ من الأيام دخل عمر ابن الخطاب بيته ليتناول الطعام، فوجد مع الطعام بعض الحلوى، فقال لزوجته: من أين هذه الحلوى؟ فقالت: كنت أدّخر بعض المال، إلى أن اكتمل فعملت به بعض الحلوى، فقال لها: إذًا ما نأخذه من الدولة أكثر من حاجتنا، فطلب من خازن بيت المال أن يخفض من راتبه بمقدار ما تمّ ادخاره لعمل الحلوى.

وفي السوق رأى إبلًا سمينة تُباع، فقال: إبل من هذه؟ فقيل: إبل عبدالله بن عمر، فقال لعبدالله بن عمر: من أين لك هذه الإبل؟ فقال: اشتريتها، قال: من أين اشتريتها؟ قال: من خالص مالي. فقال: أين كنت ترعاها. قال: كنت أرعاها مع إبل الصدقات، فقال عمر: عندما تأكل الإبل يقولون قدموا إبل ابن أمير المؤمنين، وعندما تشرب يقولون قدموا إبل ابن أمير المؤمنين، فطلب من ابنه أن يبيعها ويأخذ رأس ماله فقط، ويرد الباقي إلى بيت المال.

الدرس الثاني: فعل البر والمعروف:

إنّ على المرء أن يفعل المعروف وأن يعوّد نفسه عليه، وأن لا ينتظر المقابل من الناس، فإن المقابل سيأتي من الله تعالى. قال عزّ وجل: {كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّين}(المطففين:18). والأبرار: هم الذي يبرون بغيرهم، فيعطونهم بدون مقابل، فاصنع المعروف وثق أنه لن يضيع، قال تعالى: {وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ}(ال عمران:115).

(1) صحيح، صححه الألباني في صحيح الجامع برقم(4519).

لقد كان الصحابة الكرام يفعلون المعروف ولا ينتظرون من الناس جزاءً ولا شكورًا، وكذلك التابعون وأتباع التابعين ومن تبعهم إلى عصرنا هذا.

إنّ من المعروف: بذل المال لمن يستحقه، وإنّ إخواننا في فلسطين هم ممن يستحقونه، فإذا أعطيت لهم شيئًا من مالك فلا تنتظر الشكر منهم، بل الشكر من رب العالمين، لأن المنفق في سبيل الله قد وضع ماله في يد الله تعالى، لهذا كانت عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها تقوم بتطييب الدينار قبل أن تضعه في يد الفقير، لاعتقادها أنه يقع في يد الله أولًا، قبل أن يقع في يد ذي الحاجة.

وإنّ على المنفق في سبيل الله أن يثق أن النفقة التي ينفقها سوف يعوضها الله تعالى، وأنا شخصيًا كلّما دفعت نفقة في سبيل الله، عوضني الله تعالى أضعافها، وصدق الله إذ يقول: {وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ} (سبأ:39). لذلك كانت أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها كانت تقول: يا بنية أنفقي ينفق الله عليك. وعليه فخزائن الله تعالى مفتوحة إن نحن فتحنا خزائننا، أما إن أغلقنا خزائننا فإن الله سيغلق في وجوهنا خزائنه.

إنّ صنائع المعروف كثيرة، ومنها : البر، والصلح بين المتخاصمين، والمواساة لمن نزل به ضر، والعيادة للمريض، والتشييع للميت، والتهنئة لمن حظي بنعمة، والتعزية لمن أصابته مصيبة، والتوديع لمسافر، والآداب الاجتماعية كذلك لها قيمة عظيمة عند الله سبحانه وتعالى، قال صلى الله عليه وسلم: "إنّ العبد ليدرك بحسن الخلق ما لا يدرك الصائم القائم"[1]. وقال صلى الله عليه وسلم: "ما من شيء يوضع في الميزان أثقل من حسن الخلق"[2].

لقد أخبرنا الله في كتابه أن الأبرار الذين يصنعون المعروف سوف يكافئهم الله يوم القيامة ويسقيهم شرابًا طيبًا، قال تعالى: {يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ (25) خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ (26) وَمِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ (27) عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ (28)} (المطففين:25-28). فرائحته رائحة المسك، فكيف سيكون طعمه! قال تعالى: {وَمِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ}(المطففين:27) فالطعم له طبيعة خاصة والريح له طبيعة خاصة، لذلك قال تعالى: {لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ}(الواقعة:19). فكلما شرب الإنسان من خمر الآخرة فإنه يطلب الزيادة دون كراهية أو نفور.

لقد حثنا القرآن الكريم على السباق في أبواب الخير، قال المولى سبحانه وتعالى: {وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ}(المطففين:26). وإن أبواب الخير كثيرة ينبغي ألا نترك بابًا للخير، إلا وندخله.

الدرس الثالث: قراءة جهاد الصحابة:

السؤال هنا: لماذا ينبغي علينا قراءة جهاد الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين؟

والجواب: حتى نعرف قيمة هؤلاء الأصحاب، حيث أنهم تعبوا وصبروا وبذلوا الجهد حتى وصل إلينا هذا الدين، فأقل شيء نعمله هو أن نشكرهم وأن نترحم عليهم، اللهم صل

(1) صحيح، صححه الألباني في صحيح أبي داود برقم(4789) والسلسلة الصحيحة421/2.
(2) صحيح، صححه الألباني في صحيح أبي داود برقم(4799) وفي صحيح الترمذي برقم(2003).

على محمد وعلى آله وصحبه وسلم، كما نصلي كذلك على أمهات المؤمنين، الذين نقلن لنا حديثه وهديه، فلولاهن ما عرفنا ماذا كان يفعل النبي صلى الله عليه وسلم في بيته, وإن الصلاة عليهم من الله تعالى تعني أن يغفر الله لهم ويرفع من درجاتهم.

وإننا حين نصلي على المصطفى صلى الله عليه وسلم، فإننا نطلب من الله أن يجعله في المقام المحمود.

لقد دافع الصحابة الكرام عن الإسلام بقوة، وتحملو الكثير من الشدائد والمحن، كما تحملو أيضًا الأذى النفسي والبدني في سبيل هذا الدين.

لقد كان كفار قريش يسخرون من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، فإذا رأوهم يمشون في الطريق، يقولون: افسحوا الطريق لملوك الأرض، استهزاءً بهم، وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم وعدهم بملك كسرى وهرقل، في وقت كان الواحد منهم لا يستطيع أن يقضي حاجته في الخلاء.

والسؤال: ما هو مصير هؤلاء المستهزئين يوم القيامة؟

والجواب: أن مصيرهم النار، وأنّ المؤمنين سيضحكون منهم يوم القيامة، قال تعالى:{إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آَمَنُوا يَضْحَكُونَ (29) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ (30) وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمُ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ (31) وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ (32) وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ (33) فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آَمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (34) عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ (35) هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (36)}(المطففين:29-36). حيث يجلس المؤمنون على آرائكهم في الجنة، ويرون الكفار، وقد انهالت عليهم كرابيج من نار، ومقامع الحديد، وشرب الزقوم، والحميم، والأكل من الشوك، ويضحكون عليهم كما كانوا يضحكون عليهم في الدنيا، وذلك جزاء وفاقًا، لذلك أقول: اعمل ما شئت فإنّ الديان لا يموت، وكما تدين تدان.

فهؤلاء أجرموا وسخروا واستهزؤوا فكانت النتيجة أنهم في النار، ويستهزئ بهم.

لقد حدث في غزوة بدر أنه أصيب عدو الله أبو جهل إصابة بليغة، ومع انتهاء المعركة صعد عبدالله بن مسعود رضي الله عنه على صدره، وكانت به بقية من حياة، حيث كان في النزع الأخير، فقال أبو جهل: من؟ قال: عبدالله بن مسعود، فقال أبو جهل: لقد ارتقيت مرتقى صعبًا يا رويعي الغنم. فمع أنه في النزع الأخير، إلا إنه ما زال في غروره وتكبره وجبروته، ثم قال: لو كان غيرك هو الذي فعلها، حيث كان يتمنى أن يأتي أحد من علية القوم ليفعل ذلك. فلما رأى الرسول صلى الله عليه وسلم رأسه، قال: "لقد مات اليوم فرعون هذه الأمّة"

فهذا جزاء عاجل في الدنيا لأبي جهل، بسبب استهزائه المتكرر بابن مسعود، وقد سبق أن ضربوا ابن مسعود في مكة وهو يقرأ القرآن بالقرب من الكعبة، وكان يحمد الله تعالى أن أكمل قراءة سورة الرحمن وهم يضربونه.قال تعالى:{وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آَيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آَيَاتِنَا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ}(الحج:72).

كما أنّ العزة في الدنيا قد تحققت للمسلمين، وفي المقابل قد أصابت الكافرين الذلة والمسكنة، ففي فتح مكة: فقد رأت أمرأة من المشركات، زوجها وهو يبري السهام، فقالت: ماذا تفعل؟ قال: أبري السهام لكي أحضر لك عشرة من أصحاب محمد يخدمونك، فقالت:

أخشى أن تكون أنت الخادم عندهم, وخرج الزوج لصد المسلمين عن دخول مكة، ولكنه ولّى هاربًا حين استحر القتل فيمن قاوم دخول المسلمين مكة على يد خالد بن الوليد وفرقته, ودخل بيته وأغلق الباب خلفه, فلما عاتبته زوجته على خنوعه وفراره قال لها: والله لو رأيت يوم الخندمة لم تنبسي بأدنى كلمة.

إنّ فتح مكة من أيام العزة عند المسلمين، فهذا عز في الدنيا قبل الآخرة. قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آَمَنُوا يَضْحَكُونَ (29) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ (30) وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمُ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ (31) وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ (32) وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ (33) فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آَمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (34) عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ (35) هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (36)}(المطففين:29-36).

فقراءة سيرة الصحابة رضوان الله عليهم تعلّم الرجولة، وتجعلنا نعرف قدرهم، فندعو لهم برفع درجاتهم، فاللهم ارفع درجاتهم إلى الفردوس الأعلى، اللهم اجمعنا بهم. آمين

والحمد لله ربّ العالمين